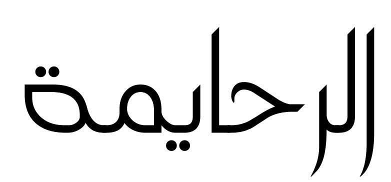

الرحايمة

بكري؛ محمود
الرحايمة: رواية/ محمود بكري. - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع/ القاهرة: ٢٠١٧.
٢٤٠ ص؛ ١٤×٢٠
تدمك: ٠-٦٨-٦٥٠٢-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٩٧٧

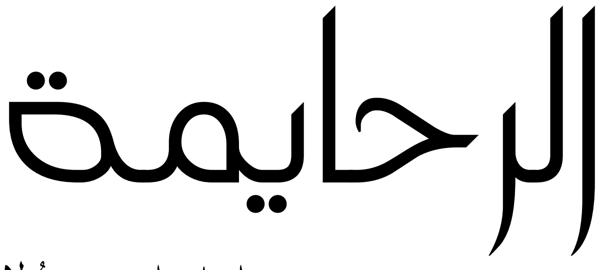
دار النشـــــــر: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع
عنوان الكتـــاب: الرحايمة
الكاتـــــــــب: محمود بكري
تاريخ الطبـــــع: ٢٠١٧
تصحيح لغـــوي: د. إيمان الدواخلي
تنسيق داخلـــي: سمر محمد
تصميم الغـــلاف: محمود سليمان
إشراف عـــــام: محمد المصري



 elrasm.blkalemaat

elrsmblklemat@yahoo.com

01061419555



مسار إجباري حيثُ لا توجد عهود

محمود بكري



إهـــداء

الإهداء الذي تأخر ثلاث سنوات

ـ إلى من أحضر لي قصص "جحا" وأنا صغير ولم يعلم أنها ستترك بداخلي شيء من حب القراءة .. إلى من نقل لي بالجينات الموهبة وحب الكلمة .. إلى أعظم شعراء العالم .. إلى أبي.

ـ إلى من حرمت نفسها من كل شيء لأكون .. إلى من كانت تأتي لي كل يوم "بالساندوتشات" إلى داخل الفصل .. إلى أعظم إدارية في الكون إلى أمي.

ـ إلى الضهر والسند ، إلى شقيقي مصطفى ، أشكرك على كل شيء.

ـ إلى أخي الصغير أحمد ، أتمنى أن أراك أفضل مني بكثير .


عصير
الكتب
fb.com/groups/Book.juice

إلى زوجتي: سيري معي ودعينا لا نلتفت .

جميع الشخصيات والأحداث الوارده بالرواية خيالية ولا تمت للواقع بصله وأى تشابه بينها و بين الواقع فهو من قبيل الصدفة لا اكثر.

المؤلف

ما قبل البداية
شتاء ١٥١٨

لم يوحِ الطقس – منذ الخليقة – أبدا بشتاء كالذي نعرفه في هذه المنطقة التي اتسم نهارها بشدة الحرارة، والليل بالبرودة القارسة. وفي بقعة بعيدة جدا هناك، استطاع رحيم الهروب من القافلة، التي اتخذت الصحراء طريقا للسفر نحو الغرب، حيث بلاد يسمونها المغرب العربي. استغل رحيم ظلمة الليل الحالكة وغياب القمر وزحام الأسرى، بعد أن فك قيده في مثابرة خلال النهار وهو حريص ألا يراه أحد سواء من رفقائه أو من أعدائه، ففي هذا الأمر من الحكمة أن ينشغل بنفسه ولا يأمن حتى لمن يشاركونه الوجيعة. كان قد استطاع في الأيام الماضية التدرب على فك القيد وإعادة ربطه مرات ومرات خلال الرحلة الطويلة. ولحسن حظه، لم يلحظ حراسه تغير ربطته.

تدحرج على الرمال حتى ابتعد. وعند الشروق، صار يراهم كثعبان يسير بين الرمال ويتلون بلونها، بينما لم يلحظ غيابه أحد، فحتى الأسرى لم يكن أحدهم منشغلًا إلا بنفسه وأحزانه، فهكذا تعوَّدوا منذ زمن بعيد.

تذكر منظر عائلته بأسرها وهي تفنى أمام عينه، وكأنها القيامة. ولكنها كانت قيامة بيد البشر لا بيد الله.. بكاهم بحرقة، بنفس قدر ما لعن ضعفهم وتفرقهم كأعداء، متناسين رباط الدم المقدس بينهم،

حتى سلبهم المهاجمون حياتهم وأذاقوهم الموت بسبب تفرقهم.. وقد استحقوه .

حين صارت الكارثة أمرًا واقعًا، ووجد نفسه أسير العبودية، قرر أنه ليس منهم، ولا يستحق نفس مصيرهم، وكان الهروب بعيدا عن كل شيء خطته ليبحث عن أرض جديدة، لا يخطئ فيها مثل خطيئة أسلافه. أي حياة ستكون في هذه الصحراء الجرداء هي أفضل مما آل إليه قومه. أيام بليال، يأكل من خشاش الأرض كدوابها، ويشرب من بوله ويلحس ملًح عرقه ليحيا. أقنع نفسه بقوته، وتحامل على نفسه ليستمر على أمله. ولكن الصحراء غلبته في النهاية بقسوتها، وبدأت روحه في الانسحاب من جسده، وفقد الوعي.

أفاق رحيم بين ذراعي امرأة، لم يعرف وجهها من قبل. فقط في هذه اللحظة اكتشف أنه غاب عن الوعي فترة لم يحصها، بعد أن ضربته الشمس قاتلة صموده. لكنه لم يمت بعد.. رغم جمالها فإنه لا يعتقد أنها من حور الجنة. وضعت كوب اللبن عند شفتيه ليرتوي، فتأكد أنه حي، وتناول منه رشفة باردة. في الحال شعر بألم في معدته، التي لم يدخلها طعام ولا شراب منذ أن نفد ماؤه وحرمته الأرض من خشاشها. سمع صوت المرأة، تقول له :

- تمهل، أعط فرصة لمعدتك أن تعتاد اللبن، ثم تناول ما يكفيك .

نظر حوله، لم يجد سوى الفراغ، وحصان، وقطيع صغير من الماعز والخراف. أكمل شرب اللبن ببطء، ثم التفت لها ممتنا، ومتفحصا ملامحها..

- من أنتِ؟

خرج السؤال منه بمعاناه حقيقية، فابتسمت المرأة ابتسامة حجبت ضوء الشمس وأنارت وجهها. منَّ ثغرها عليه بابتسامة لم يرها في عمره قط.. ابتسامة أنسته علته وخوفه من كل ما هو قادم .

- أنا مُنقذتك .

سعل من شدة التعب، فقالت بملامح واثقة وهي تساعده على ركوب الدابة :

- لم يتبق الكثير على خيمتي.. لتسترح هناك كما تريد، ثم تقص عليَّ حكايتك.

نظر مرة أخرى حوله، ليرى الفراغ محيط به من كل الاتجاهات. من هذه الأنثى التي ظهرت له من العدم؟ أين تعيش ولماذا تساعده؟.. استقر على ظهر الدابة ممسكا بلجامها بصعوبة، بينما مشت بجانبه برفقة قطيعها إلى جواره. لكنه لم يتمالك دوار رأسه، وكاد يسقط من فوق الحصان، فلم تجد المرأة حلا لهذه المعضلة إلا أن تركب خلفه وتمسك به جيدا لتمنعه من السقوط . سار الحصان الهوينى، وفوقه صاحبته تتفقد ملامح رحيم تارة، وتارة آخرى تشد اللجام وتوقف حصانها لتهش على غنمها، حتى وصلت بقافلتها الصغيرة قبل الغروب بقليل. كان العدم يمتد في المكان من كل الاتجاهات، ولا شيء سوى نخلتين نبتتا من أصل واحد، فكبرتا على شكل رقم سبعة، تستظل المرأة بهما وتأكل منهما التمر، وبئر تشرب

منه وتسقي قطيعها، وهذه الخيمة الصغيرة التي كانت تضم أباها معها قبل رحيله. قفزت هي أولا من فوق دابتها، ثم ساعدت رحيم في النزول مستندا على كتفها، ثم أخذته إلى خيمتها حيث أراحت جسده على الأرض بجوار الفراش الوحيد بالخيمة .

نظرت لحاله الرثة، وجسده المتسخ، وكانت الرحلة القصيرة قد أنهكته فعاد لإغماءته، فحاولت إفاقته دون جدوى. كان قد بدأ هلوسة الحمى، فأحضرت بعض الألواح الخشبية التي استخدمتها في غسل وتطهير أبيها قبل دفنه، ووضعته عليها بصعوبة، ثم نزعت عنه ملابسه، وغسلت جسده بالماء البارد، ثم قصت له شعره ولحيته. تعاملت معه كأنه ميت، لتستطيع إكمال مهمتها، ثم ألبسته ملابس أبيها وعباءته، ووضعته في الفراش وظلت بجواره يوم وليلة، وهو في سبات النوم أو فقدان الوعي، وهي تسقيه الماء وتغذيه باللبن ومنقوع التمر، وتضع قطع الصوف المبللة بالماء على جبهته، والحمى تعاندها وتأبى ترك جسده .

أصبحت الشابة له أمًا، قبل حتى أن تعرف من هو وما هي قصته. مر يومان منذ أول لقاء لهما وهي مستمرة في رعايته إضافة لأعمالها اليومية. حتى استيقظ رحيم من موته في اليوم الثالث، ليجد نفسه في رداء غريب، ملقى على فراش لم يألفه من قبل. نظر حوله يستكشف الخيمة، ثم اجتهد ليقوم من مكانه. استطاع الوقوف أخيرا، وخرج من الخيمة يتأمل ما حوله، فلم يجد سوى بئر ونخلتين تلقيان على الخيمة ظلهما. اتجه إلى البئر، يريد أن يشرب، فرأى

صورته من غير لحيته تقابله في الماء، فتحسس وجهه ليتأكد من ذلك. لم يتذكر ما حدث له بعد أن أغشي عليه في صحراء قاحلة،

فجلس في مكانه ينتظر من يأتي ليحكي له ما حدث في الأيام الماضية.

طال انتظاره، حتى ظهرت له امرأة تمتطي حصانا قويًا، فرفع يده أعلى رأسه بقليل ليبعد ضوء الشمس عنه، ليستطيع رؤيتها أفضل. كانت خمرية البشرة، بشعر أسود مموج، وفم متسع بالابتسامة يكشف أسنانًا ناصعة البياض، وترتدي سروالًا قصيرًا أسود اللون، كشف عن ساقين قويتين، انتهيا بفخذان أشد قوة وجمالًا، ولها صدر خلق لهذه الأنثى ليكتمل جمال اللوحة. قابلت نظرته عينيها العسليتين، فتجاهلته، وراقبها هو صامتًا حتى نزلت من على دابتها وعقدت لجامها في جذع النخلة .

- أحياك الله بعد موتك.. ألهذه الدرجة عوقبت، أم لهذه الدرجة يحبك الله؟

أجاب في نفسه، وهو يتذكر كل ما مر به، أن لو كان الله يحبه لما فعل به كل هذا. ضحك على حاله، متمنيا أن تكون هي دليلًا على حب الله له. صمت ولم يجبها، بينما اقتربت هي لتجلس بجواره، وتشاركه الصمت .

أخيرا سألها:

- من أنتِ، وكيف وجدتِني، وكم قضيت هنا؟

حاول ألا يكون وقحا بتفحصه لها، وساعدته هي بأن تناولت رداء آخر طويلًا، ليداري عن عينه مفاتنها، ثم قالت مبتسمة وهي ترتديه :

- أنا من تريد أن تستجوبك؛ ولكن لك الإجابات التي تريد، ليطمئن قلبك.

قصت عليه ما حدث منذ يومين.. المكان الذي وجدته فيه، فقدانه للوعي، استيقاظه بين الحين والآخر لتناول الماء واللبن وبعض التمرات، سهرها بجانبه ليلتين لم تر فيهما النوم، صوت صراخه وتهدج أنفاسه وهو نائم، تنظيفها لجسده وضمها له وهو متهدج الأنفاس مضطرب، ليستطيع أن يكمل نومه أو سباته الذي كان عليه. حاول أن يتذكر شيئا من هذا، فلم يتذكر.. فقط ملامحها بدت له مألوفة بأكثر من معرفة يومين لم يكن فيهما واعيا .

أتت لهما ببعض التمر وإناء به لبن، فوضعتهما أمامه، وجلست تأكل تمرة وتسأله عن تواجده وحده في هذا المكان النائي البعيد عن كل شيء، وبلا زاد أو متاع. ذهب بعينيه بعيدا عن البقعة التي يجلس عليها الآن، أردف بمحاولة للتماسك، حتى لا تهرب دمعة من عينه تجعله عاريا أكثر من ذلك أمامها، وبدأ يحكي..

- كان أبناء جلدتنا ممن داستهم الأقدام في الحرب على حكم مصر.. كالعادة، يجني الحكام الذهب، ويعاني الشعب من الهوان والفقر.

صمت قليلا، واختلج صدره وتهدجت أنفاسه.. أخذ نفسا ليرتب كلماته ثم تابع :

- دخلوا قريتنا بعد غياب القمر.. قتلوا الجميع، ومن هرب منهم رشقوا ظهره بالرماح، ثم نكلوا بجثته.. اعتلوا النساء، ثم أخذوهن سبايا، ومن كان في الخارج وعاد بعد هلاك القرية أخذوه أسيرا يخدمهم في رحلتهم للغرب.

صمت ثانيةً كأنه يتذكر شيئا، ثم استطرد بصوت متهدج :

- أربعين يوما أرى ما تبقى من أبناء جلدتي يعانون نهارا من أسواط المنتصرين، وبناتنا تعانين من اغتصابهم لهن ليلا .

- هوِّن عليك .

قالتها وهي تضع يدها على كتفه، ثم تمسح بها الدمعة التي فرت من عينه. شعرت عندما لمست وجنتيه المحرورتين بيدها أنه عانى كثيرا.. لمعان عينه ونبرة صوته التي كسرتها الذكرى أنبآها ببشاعة ما قاسى .

شرد رحيم، وتكلم كأنه مع نفسه يحدثها مختليا بها.. اجتر ذكريات نشأته، وكيف أنه ولد يتيما وربته أمه عجيبة الأفكار، حتى جافاها جيرانها، إلى أن أصبح رجلا فوضعها في التراب بعد أن أصابتها علة لم يستطع شفاءها أحد، أو ربما لم يتحمس أحد لعلاجها. لكنه كان قد ورث أفكارها التي اتهموها بالغرابة، فحاول كل يوم أن يوحِّد عائلات قريته، لتكون يدًا واحدة أمام كل من

يفكر أن ينهب خيراتهم ويسرقهم. ولكنهم خذلوه كما خذلوا أمه من قبله.. إلى أن لقوا حتفهم على يد من اتحدوا لإفنائهم.

طال بينهما الحديث إلى وقت الغروب. وبعد أن ألقى حمل حكايته، سألها عن حكايتها وسبب وجودها بمفردها في هذا المكان، فقالت باستماتة محاولة تأجيل قصتها :

- لم أعرف اسمك حتى الآن.. بماذا أناديك؟

- رحيم.. اسمي رحيم، وانتِ؟

- مارية.. نادني مارية .



١

الأسكندرية - شتاء ٢٠١٦

لم يكن هكذا قبل أن ينتقل بمفرده لهذه الشقة، كما لم تكن الأسكندرية هكذا من قبل. تدهور حالهما كثيرا في الفترة الأخيرة. لكن الأسكندرية قادرة على أن تعود دوما.. يغسلها المطر، فتعود لسكانها ومريديها كما كانت .

انتهى من التصميم المطلوب منه، فرجع للوراء مكافئًا ظهره، بعد ساعات العمل المتواصلة جالسا أمام الحاسوب المحمول الموضوع على المكتب العتيق، في الغرفة المواجهة للبحر، والتي لا تدل مكوناتها على أنها غرفة إطلاقا، بل يليق بها أكثر تسميته لها "الصومعة".

يجلس، وعلى يساره نافذة كبيرة، تليها الشرفة التي تطل على البحر مباشرة. كلما أراد الانفراد بنفسه، أغلق باب الشرفة والنافذة، واستفرد بها يحاسبها ويناقشها في أمور شتى. أما إذا أراد مشاركة البحر في الحوار، فقط يدفع النافذة بيده، ويبدأ يحكي له ما يدور بداخله. هذه أكثر الأماكن التي لبث فيها ولم يتحرك، هاربا من واقع يجري وراءه كظله، أو من أحلام لا تفارقه. على يمينه سرير صغير،

وسبورة بيضاء بعرض الحائط، مكتوب عليها كلمات بشكل متقطع ومائل، وملصق عليها بعض الوريقات المكتوب عليها كلام بخط صغير .

قام من مكانه، وبقلم أسود وضع علامة "X" على اسم موضوع بداخل دائرة على السبورة. طقطق أصابعه، واتجه إلى الشرفة وهو يضع القميص على كتفه ليداري نصفه العلوي، ووقف ساندًا ذراعيه على السور، ببنطال أسود وحذاء بلاستيكي وقميص مفتوح عن آخره، ليواجه الهواء البارد بصدره مباشرة.

اتصل بالعميل، أخبره أن طلبه تم تنفيذه، فظهرت الفرحة في صوته، ثم طلب أن يرى التصميم النهائي، ليطمئن قلبه على شكل غلاف كتابه الذي استغرق كثيرا في كتابته، وإخراجه بالشكل الذي يريد. أخذ نفسا عميقا من البحر، برائحته التي تريح أنفه ورئتيه كثيرا، ودخل مرة أخرى وأرسل ملفا مضغوطا للعميل، وبدأ رفع آخر بجودة أعلى على صفحته الشخصية على الفيس بوك، ليراها متابعوه بمجرد موافقة العميل. بعد أقل من دقيقة، جاءته رسالة من العميل، فحواها أن التصميم أعجبه كثيرا، وأن هذا الشكل هو الذي كان يتخيله في رأسه طوال فترة الكتابة. فرح بهذه الرسالة، كغيرها من رسائل العملاء والمتابعين دوما، لأنها تكلل تعبه بالنجاح، أولا لإرضاء العملاء، وأخيرا نفسه، لأنه أصبح من أشهر المصممين في مصر، رغم جهل الجميع بماهيته.

رد عليه بهدوء ورصانة، يسأله عن وقت إعلانه عن غلاف الكتاب، فرد الكاتب والمرح يملأ حروفه "حالا"، فتابع عملية رفع الملف على صفحته، بينما يتأمل في جمود طلب الكاتب أن يقابله ليعطيه باقي أجره ويشكره شخصيا على هذا المجهود الرائع .

لم يقابل رحيم أحدًا من العملاء قبل ذلك، ولا ينوي فعل هذا. لا يعرف أحد ماهيته ولا شكله. يعرفه الجميع من على الفيسبوك، والتعامل من خلال الرسائل، وتحويل المبالغ المستحقة لكل عمل عن طريق "الكاش" على رقم مغلق دائما. كانت هذه الطريقة تحيطه بهالة من الغموض في الوسط الفني، جذبت إليه مريدين أكثر .

اشتهر رحيم كذلك بأنه يستطيع عمل أي شيء في أي وقت، مما ضمن له صعود السلم في وقت قليل، وانتشر اسمه بين الفنانين والشعراء والكتاب، وأصبحت تصميماته ورسوماته على أغلب أغلفة الكتب، وخطه مكتوب به نسبة كبيرة من أسماء الفنانين والشعراء.

رد رحيم على الكاتب بنفس الهدوء والثقة، شاكرا إياه على هذا العرض، ومؤكدا أنه يمكنه تحويل باقي المبلغ عن طريق "الكاش" كما فعل بأول دفعة. استغرب الكاتب رفض رحيم الدعوة على العشاء أو تناول أي مشروب معه في أي مكان، ولكنه وعده أن يصله المبلغ في خلال ساعة. كان الفيس بوك في هذه اللحظة قد انتهى من رفع الصورة، فضغط رحيم على كلمة النشر ضغطة واحدة، وأغلق الجهاز قبل أن يرى رد فعل المتابعين .

أحس أنه يفتقد البحر كثيرا، رغم وجوده بجانبه دوما. افتقد الحديث معه، والذي يتأجل يوميا وسط انشغالاته الكثيرة. أرسل عينيه من النافذة حتى الأفق، وكلما نظر إليه بتركيز يعود فيبعد عينيه عن مواجهته، كأنه يخشى أن يسأله البحر عما فيه .

أخرج هاتفه، وفتح متصفح "الماسنجر"، لا يعير انتباها للرسائل التي تمدح فيه وفي عمله وتصميماته، بل يبحث بعينيه عن رسائل العمل، التي يلتقطها من بين الكثير. تذكر أنه أعطى نفسه إجازة لمدة ٢٤ ساعة، ليرفه نفسه بعد فترة العمل المتواصلة. فكر لبرهة يتصل بـ "سلمى"، تلك الكاتبة التي استطاع جذبها إليه بعيدا عن كونه المصمم الشهير، وأثار فضولها لتتعرف عليه كإنسان، خاصة أنه يعرف عنها الكثير، بعد أن قرأ مذكراتها الخاصة التي أرسلتها إليه بناء على ثقتها فيه كمصمم مشهور، فهكذا الناس يعتقدون أن الشهرة سبب كاف للثقة. هو بالفعل لم يُطلِع أحدًا عليها، ولكنه استغل ما كتبت ليستدرجها، وبرقمه الخاص اتصل بها وتعرف عليها، ولعب على وتر مشاكلها الساذجة، فباحت له بأسرارها الصغيرة، وأصبحا صديقين، ومن يومها وهما يتبادلان المكالمات والمقابلات من وقت لآخر .

أم يتصل بـ "إبراهيم" صديقه الحميم، وينزل معه يتسكعان في الطرقات؟ سأل البحر مرة أخيرة، قبل أن يضغط على زر الاتصال مستغيثا بصديقه، تاركا سلمى لتحادثه هي وقتما تريد كعادتها .

رد إبراهيم على الفور، وصوت الضجيج يعلو شيئا فشيئا بجانبه، فسأله رحيم عما هناك، ليجيبه صديقه أنه في الطريق لمشاهدة المباراة المنتظرة بين "محمد صلاح" اللاعب المصري المحترف بالخارج و "ريال مدريد". ضحك رحيم كثيرا لاختصار صديقه الفريق الذي يضم محمد صلاح في اللاعب الذي يحبه، فقط لأنه يحمل نفس جنسيته. سأله عن مكانه، فكان على طريق البحر متجها إلى إحدى الكافيهات الشهيرة لمتابعة المباراة، فطلب منه أن يحجز له كرسيا بجانبه، ليقابله ويتابع المباراة معه. لم يكن رحيم من محبي كرة القدم أو متابعيها، لكن هذا يعتبر خروج عن القاعدة والروتين اليومي، يريد أن يرفه به عن نفسه في الأربعة وعشرين ساعة الإجازة، دون تضييع الفرصة من يده، فهو مقبل على فترة عمل عصيبة.

بهدوء، دخل الحمَّام واغتسل، وهندم لحيته التي يتركها ككثير من شباب جيله. إنه يتركها لأنها تليق به كثيرا، ولأنه لا يريد أن يرى وجهه الحقيقي الذي لا يوحشه. نظر مرة أخيرة لنفسه في المرآة، قبل أن يخرج من الحمام ويرتدي ملابسه، ليرى في المرآة أنه تغير كثيرا. لا زالت عين بنية وشعره أسود.. لحيته تكاد تكون مهندمة.. لكن فوق عينيه نظارة طبية تداري إرهاق عينه الذي لا يفارقه، وبشرته صارت خمرية دائما، وهيئته كلها لم تعد كما كانت. عقد رباط حذائه عند باب الشقة، ثم أخرج هاتفه ووضع السماعة الخارجية في أذنه، وشغل الموسيقى التي ترافقه طريقه دوما، ونزل السلالم في هدوء وسلام.

السماعة الخارجية بالنسبة لرحيم هي أهم اختراع عرفته البشرية حتى الآن، لأنها تأخذه من عالمهم لتدخل به لعالمه الخاص. فتح الفيس بوك على شاشة الهاتف في يده، وبدأ يقرأ آراء المتابعين على حسابه الشخصي.. خرج من باب العمارة، ثم اتجه يمينا ليعبر الشارع من خلال النفق، ثم سار وعينه لم ترتفع عن شاشة الهاتف يتابع التعليقات، حتى إنه لم ير أو يسمع تلك الفتاة التي اتجهت إليه تكلمه، ولمّا لم يسمعها حاولت أن تلوح له ليراها، لكنه ركب سيارة أجرة، قبل أن يلمح منها شيئًا. تجاوز المنشور الخاص بالتصميم آلاف الإعجابات في أقل من ساعة. تعطيه الإعجابات نشوة غريبة، ودفعة قوية لاستكمال ما يحب. اطمأن قلبه، وضغط على كلمة التعليقات بخوف وقلق، لأنه دوما يشعر بالقلق بعد كل عمل، خاصة لو بذل فيه مجهود مختلف .

أغمض عينه، حتى يقوم المتصفح بالتحميل وفتح التعليقات.. أخذ نفسا عميقا، ثم فتح عينه وبدأ يقرأ التعليقات واحدا تلو الآخر، وبدأت ترتسم الابتسامة على وجهه شيئا فشيئا. قرأ جميع التعليقات.. كان يفرح بشدة كالأطفال عندما يشيد به شخص بحرارة تكون واضحة في الكلام، ويضيق صدره من التعليقات التي اعتاد عليها من أشخاص يعرفهم جيدا، يحقدون عليه ولا يستطيعون أن يصلوا لنصف مكانته في عالم التصميم. تعليقات لا أساس لها من الصحة، ولكنهم يبحثون في كل شيء جميل عن ذلة لا تكون واضحة للناس، ويقومون بتسليط الضوء عليها ليراها الجميع، رغم

أن جمال الباقي يغلب على الصورة كاملة. إنها طبيعة الأشخاص الذين فشلوا في حياتهم ولن تتغير.

انتهى من قراءة التعليقات، وشعر برضا داخلي وسلام نفسي واطمئنان على نجاح التصميم الأخير. نظر من النافذة، فوجد أنه اقترب من الكافيه، فأغلق المتصفح وترك للموسيقى السيطرة الكاملة على مزاجه وأعصابه. نزل من التاكسي قبل المكان بقليل، ليتمشى قليلا ويتصل بعمه ليطمئن عليه. ردت عليه زوجته "تحية"، هذه السيدة التي ظهرت لهم من العدم لتحمل عنهم مسئولية هذا العجوز. سألها إن كانت تحتاج للمال أو أي شيء آخر، ثم شكرها ممتنًا وأغلق معها، بعد أن وعدها بزيارة قريبا. كانت تحبه كابنها، ولكنه كان يحبها لرعايتها لعمه .

اتجه لفرع الشركة المتوفر به خدمة الكاش في طريقه، وسحب المبلغ المحول له، والذي فرضه هو ولم يفرضه عليه أحد. وضعه في جيب وحده بعيدا عن باقي النقود، لحين أن يقرر ما يفعل به. قد يعطيه لمن يحتاجه هذه المرة من جيرانه، إنه يعرفهم جيدا وإن كانوا لا يعرفونه. لم يكن رحيم من المعتدلين في حياتهم إطلاقا، ولكن بداخله شيء نقي، يجعله لا يستطيع أن يرى محتاجا أو أحدًا يتألم. تكفيه نظرة الفرح من أي شخص حين يساعده. هذه النقطة البيضاء التي لا تزال بداخله هي ما تجعله قادرا على التنفس حتى الآن.

عبر الطريق، وأقبل على صديقه، وعانقه بصدق حقيقي وحرارة اشتياق واضحة في ضمته. صاح فيه صديقه:

- أنا مش هحلف.. بس أقسم بالله انت واحشني

ضمه أكثر، وترك قبلة على كتفه، تحمل صدق كلامه. إبراهيم هو صديق رحيم الوحيد، الذي يعرف عنه كل شيء، ولا يستطيع أن يداري عنه شيئا. عاش إبراهيم حياة مستقرة ماديا مضطربة نفسيا، بعد أن تركه والداه مع جدته للعمل خارج مصر، ومنذ أن توفيت الجدة وهو يعيش بمفرده. أصبح رحيم أخا لإبراهيم، منذ أن التقيا في السنة الأولى لكلية الحقوق، ولم يفترقا من يومها، ونمت بينهما صداقة ومحبة مخلصة، رغم قلة مقابلاتهما بسبب السعي وراء الرزق. جلس الصديقان ليتابعا المباراة من أولها، وطلب رحيم من العامل بالمقهى أن يأتيه بالقهوة، وهذا ثاني أهم اختراع في حياة رحيم، الذي يغير له مزاجه دوما ويعطيه انتعاشا غريبا، بما أنه لا يحب الكحوليات، فهو يعتبر القهوة بديلة عن خمره الخاص، الذي يمنعه عن خمر السكر وغياب الوعي، والتي لم يجربها إطلاقا، رغم رغبته الشديدة في تجربتها، لكنه يصر ألّا يترك نفسه لغواية مشروب قد يتملك أمره بدلا من أن يملكه هو.

بدأت المباراة بحماس من المشجعين، الذين تجمعوا ليتابعوا نجمهم المصري، الذي يرفع رأسهم دوما، أو كما يقول المذيع العربي الشهير الذي يحب الجميع تعليقه على المباريات أنه "فخر العرب". تابع رحيم المبارة محاولا التركيز، كي لا تفوته أي لقطة، خاصة أنها أول مرة يشاهد أي مباراة لغير فريقه. كان يهرب من كل ضغوط حياته إلى حياة إبراهيم الأكثر مرحًا وإلى ملهاة الكرة الصاخبة .

بعد مرور القليل من الشوط الأول، جاءته رسالة على متصفح "الواتس" من سلمى، تقول له "وحشتني"، مع "إيموشن" قرد يضع يده على فمه. ضحك من قلبه عندما رأى الرسالة، وقرر تأجيل الرد لما بعد المباراة. دقائق فقط، ثم لم يستطع منع نفسه من التواصل معها. رد عليها، وبدأ الحديث بينهما، فنسي أمر المباراة إطلاقا، فهكذا مواقع التواصل الاجتماعي، عادتها أن تأخذه من الحياة والواقع ليعيش حياة المتصفحات ورسائلها، التي اختصرت كل العلاقات في مستطيلات صغيرة على شاشة الهاتف. رحيم لا يرى مشكلة في ذلك، بل يجدها وسيلة سهلة للتواصل مع من يحب، ولذا فهو لا يضايقه أن يقضي وقتا طويلا على الإنترنت بصفة عامة، وعلى الفيس بوك ومشتقاته بصفة خاصة.

دار الحديث بينهما كعادته، أوله اشتياق وحنين، وآخره تحديد موعد يتقابلان فيه. أرسلت له صورة وكتبت أسفلها "ايه رأيك في الطقم ده" رفع نظارته ودقق أكثر، ثم رد بـ "إيموشن" في شكل القُبلة، فهمت منه أن ما رآه قد أعجبه. فرحت كثيرا، لقد ظهر رحيم في حياتها لينتشلها من دائرة المنافقين الذي يقتربون منها لحاجة يريدونها، ثم يهجرونها عندما تنتهي مصالحهم. تكره سلمى النفاق ويصيبها الاشمئزاز ممن لا يمتلكون الصراحة، التي تريح كثيرا وتختصر طرقًا طويلة بدون اللف والدوران. انتهى الحديث بموعد اللقاء، فأغلق رحيم هاتفه، وعاد يتابع باقي المباراة وهو يشجع بحرارة مع صديقه.

* * *

٢

الأسكندرية

خرجت من الحمَّام، تضع المنشفة على شعرها الذي يشبه الليل في طوله ولونه. استخدمت المجفف لتنتهي من بلل شعرها بسرعة، ثم أخذت تختار ما ترتديه بعناية. وفي أقل من ربع ساعة، كانت مكتملة الأناقة مستعدة للنزول. تختار الأسود كثيرًا. إنه يضيف لجمالها شيئًا لم تعرف ماهيته ولا وصفه، لكن كل من يعرفونها يؤيدون تأثيره الإيجابي على بريقها. لم تتعوَّد أبدًا تضيع الوقت كسائر الفتيات في تجهيز أنفسهن لأي موعد؛ إنها تستطيع أن تكون جاهزة في أقل وقت، فقد اعتادت ضيق الوقت بين لحظة تبليغها طلب العمل الخاص بها - مع ابتعاد مكانه- وموعد وجودها المفترض هناك. الوقت حليفها هذه المرة.. ولكنها هي من تريد أن تكون في القاعة قبل الموعد، فهذه أول مرة يعرض عليها تصوير حفل توقيع كتاب، وهذه تجربتها الأولى في تصوير حدث ثقافي، بعد شهرتها بين المصورين باحترافها تصوير الأفراح. إنها تسجل رحلة العروس من وقت دخولها "الكوافير"، وحتى دخولها غرفة نومها. عملها مرهق للغاية، تحبه جدا فتؤديه بإتقان. طبيعة عملها رغم الإرهاق إلا أنها

تناسب روحًا رقيقة جدا تبحث عن البهجة .

رغم ذلك، فهي لا ترفض أي فرصة للمغامرة.. توافق على النزول لتصوير المظاهرات والانتفاضات المعارضة، وترسل صورها للقنوات الفضائية وتتلقى أجرًا مجزيًا مقابلها.. التصوير بالنسبة لها متعة، ليس مجرد باب رزق، ولذا فإنها تلتقط صورًا غريبة وممتعة وترفعها على الإنترنت، وقد تقوم ببيعها لمريديها، ولمن يريدون استعمال صورها بشكل أو بآخر. إنها تعتبر مشهورة على موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك" إلى حد ما.

وبملابسها السوداء، وبنظارة طبية سوداء، تحجب عينين بنيَّتَي اللون، وخدين ممتلئين قليلا، وبشرة بيضاء، وملامح هادئة، جلست عهود على كرسي بجانب باب الشقة، لتعقد رباط حذائها، ثم أخرجت هاتفها، ووضعت السماعة الخارجية في أذنها، وضغطت على الزر لتنطلق الموسيقى التي ترافقها طريقها دوما، ثم نزلت السلالم بسرعة وحيوية. وقفت عند باب العمارة، ثم فتحت متصفح "الماسنجر" لتلقي نظرة أخيرة على العنوان، الذي ستخبره لسائق التاكسي لتصل في الميعاد المناسب. فجأة جال بخاطرها أنها تنفق كثيرا في التنقل بواسطة التاكسي، لماذا لا تحاول تذهب هذه المرة بـ "المشروع" الذي يركبه جميع أبناء مدينة الرب، الأسكندرية الرائعة. تذكرت أول مرة جاءت فيها من الشرقية للدراسة في الأسكندرية.. كانت تقيم مع زميلاتها في شقة بجوار الكلية، فلم تركب حينها أي مواصلة داخلية للتنقل من مكان لآخر. كانت من البيت للكلية

والعكس. إلى أن طلب منها زميل لها في مرة من المرات أن تذهب بدلا منه لتصوير حفل زفاف صديقتهما، لأن لديه ظرفًا طارئًا ولن يستطيع أن يذهب، وأعطاها الكاميرا التي تعشقها منذ زمن وتعرف استخدامها جيدا. انبهر الجميع بعد الزفاف بتصويرها، وبدأت تصوِّر حفلات زفاف أصدقائها على استحياء، إلى أن احترفت المهنة وأصبحت مصدر دخلها الرئيسي، واستطاعت أن تقيم بمفردها في شقة في المكان الذي تريد.

التفتت يمينا ويسارا لتسأل أي عابر عن مواصلات هذا العنوان، فوجدت أحدهم يسير واضعا عينه في هاتفه، فاتجهت إليه تسأله ضالتها. لم ير منها شيئًا، ولا حتى سمعها، بسبب السماعات التي تحتل مجال سمعه. حاولت أن تلوِّح له ليراها، لكنه ركب أول سيارة أجرة، قبل أن يلمح منها شيئًا.

زفرت بضيق، ثم أشارت لتاكسي قادم باتجاهها، فأخبرته بالعنوان، وألقت برأسها للوراء تسترخي قليلًا قبل العمل، الذي تبذل فيه أقصى مجهود لتخرج بأفضل اللقطات .

وصلت قبل الموعد المحدد.. وجدت بعض القراء قد بدأوا في حجز أماكنهم في انتظار الكاتب لتبدأ مراسم حفل التوقيع . ثبتت الكاميرا الأساسية التي ستسجل الحفلة كاملة، على شكل حلقة تلفزيونية، بصيغة تصوير الفيديو. أبلغت مسئولي التنظيم بأماكن المقاعد التي تريدها شاغرة، لأنها سوف تتنقل عليها لتلتقط أفضل

الصور الممكنة للكاتب من جميع الزوايا. كانت تجهز كل شيء بطريقة متقنة.. بطريقة أكثر احترافية.

بدأت الأعداد تزيد، والأماكن الشاغرة في الامتلاء. أصبح المكان ممتلئا عن آخره، وجلس القراء يتبادلون أطراف الحديث، ويتناقشون في شيء لم تفهمه.. كل شيء جاهز في انتظار الكاتب .

وكعادة الجميع في بلدنا الحبيب، تأخر عن موعده أكثر من نصف ساعة، ثم فجأة ظهر عند مدخل القاعة. أخذت موضعها، تلتقط له صورًا متفرقة وهو يدخل من الباب ويتجه إلى مكان كرسيه، الذي يقع خلف طاولة طويلة، عليها كتبه مرصوصة بشكل مميز، ووراءه لوحة جلدية عليها صورته واسمه واسم الكتاب الأخير الذي تقام له الحفل الآن. جلس الكاتب في كرسيه، وساد الصمت. ثم تناولت إحدى فتيات فريق التنظيم الميكرفون، وبدأت بالترحيب بالكاتب والضيوف والقراء الحضور، ثم تكلمت عن تاريخ الكاتب في إيجاز، قبل أن تنقل الميكروفون إلى الضيف الذي سيدير الندوة.

كانت عهود تتابع ما يحدث بشغف وفضول، ولا تكف عن التنقل من مكان لمكان لتلتقط أفضل الصور من وجهة نظرها. اليوم بالنسبة لها شكَّل تحديا جديدا، واحتكاكا بأوساط مختلفة عما اعتادت، فأرادت أن تثبت نفسها بجدارة كما فعلت قبل ذلك. تابعت فرحة الكاتب بالحضور، وترحيبه بمناقشتهم له في كل شيء يخص الرواية وأحداثها. بدأت المناقشة بسؤال بدا أن الكاتب كان

يتوقعه، فقد جاء رده رصينا هادئا، كما لو كان قد راجعه مرارا وتكرار مع نفسه، لتخرج منه الكلمات بهذا الهدوء.

- مين البنت اللي قابلها البطل في الآخر دي؟

ابتسم الكاتب، فبدا بشوشا لقرائه، وثبت وضعيه نظارته، ثم أخذ نفسا عميقا وقال:

- كل واحد فينا عنده حد مانقدرش نقول عليه صاحب، ولا نقدر نقول عليه حبيب.. شخصية كده مالهاش وصف، عشان أي وصف هيكون مش منصف ليها. لو قُلنا انهم أصحابنا، طب بنغير عليهم ليه؟! .. ولو قلنا اننا بنحبهم، طب مابنقولش ليهم ده ليه، ونطلب اننا نكمل معاهم؟ بالمناسبة بقى.. الخوف كفيل انه يخسرك أهم حاجة في حياتك.. الشخص ده لو في حياتك، شوف الوضع اللي يناسبه ايه من العلاقة دي واديهوله، واوعى تخسره.. اوعى تفرط فيه مهما كان السبب. البنت اللي قابلت البطل في الآخر دي هتكون صاحبته بتاعة الفيس بوك.. اللي يوم ما غاب عن الوعي وقرر يعيش حياة كاملة في اللاوعي كانت هي البطلة فيها، بأهم صفة كان مفتقدها، بسبب المشاكل النفسية اللي والدته عملتهاله.

كانت الحفلة مبهجة والقراء متفاعلين مع الكاتب. وصفه كثيرهم بكلام أسعده وهو بينهم، وقد انتهت المناقشة وجاء وقت التوقيع. اقتربت عهود من الكاتب تخبره أنه مع كل قارئ ستكون هناك صورة للذكرى، بعد أن يوقع له ينظر للكاميرا لتلتقطها لهما معا.

ابتسم لها وشكرها على مجهودها، فبادلته الابتسامة ومضت تقوم بدورها على أكمل وجه. حتى انتهى الحفل، فوعدت إدارة المكان أنه في خلال ٤٨ ساعة ستكون الصور معهم، فشكرها الفريق، وحاولوا إقناعها بصحبتهم لتناول الطعام، فرفضت بذوق، ثم غادرت بهدوء.

أخرجت هاتفها، لتجيب اتصال صديقتها "سلمى"، التي جاء صوتها في الهاتف بنبرة ساخرة مرحة:

"وحشتني يا عم منصور فلاش".

ضحكت عهود للمزحة، واطمأنت عليها، ثم أخبرتها أنها اليوم كانت في حفل توقيع لكاتب ذكرت لها اسمه، فقالت لها صديقتها إنها تعرفه جيدا، وأنها قرأت له، وتريد أن تصبح مثله عندما يصدر كتابها الأول والأخير في معرض الكتاب. ضحكت عهود، فقالت لها سلمى إنها بذلت مجهودا كبيرا فيه، ووضعت به كمية مشاعر وطاقة رهيبة، وتتمنى نجاحه كما توقع لها كل من قرأه قبل تقديمه للنشر. طمأنتها عهود، وتمنت لها أن تصل لأكثر مما تريد، ثم طلبت منها أن تأتيها في الغد لتتناولا الغداء سويا، فاعتذرت سلمى بذوق، متحججة بوالدتها ومرافقتها لها دوما بسبب مرضها، فقدَّرت عهود ظروف صديقتها، واطمأنت عليها مرة أخيرة وأغلقت الهاتف.

في التاكسي، ظلت عهود ممسكة كاميرتها، تمر بعينيها على الصور، تختار منها ما تقوم بمزيد من التجويد لها على "الفوتوشوب"، وتمسح الصور التي لم تعجبها بنسبة مائة في المائة. عهود شخصية

عنيدة لا تقبل إلا بالنجاح، وطالما خاطرت بالدخول في شيء فلابد من أن تخرج منه فائزة. كانت ذاتها هي أمل نفسها الوحيد.. هي التي سوف تبقى لنفسها في هذه الدنيا، لا تريد أن تتذكر شيئا مما مضى، تريد فقط أن تنجو من غابة الدنيا، وتستمر علاقتها مع البحر، الذي يحتويها ويضمها كلما احتاجت له. آخر ما يمكن أن تفعله أن تضع حياتها في يد شخص يكون سبب في موتها في يوم من الأيام .

نزلت أخيرا من التاكسي، وسارت حول البناية يسارا، ودخلت المطعم هناك، حيث طلبت وجبة جاهزة، أخذتها معها لشقتها. أبدلت ملابسها، ووضعت وجبتها على السفرة وبدأت في تناولها، وقد أتت بالحاسوب المحمول من الداخل ففتحته، وبدأت تنقل الصور من الكاميرا إلى الجهاز، وهي تنتهي من قطعة الدجاج الأخيرة . دخلت الى المطبخ، وأعدت لنفسها قهوة لتستطيع التركيز. تعتبر القهوة أحد أساسيات الحياة بالنسبة لعهود، لا تستطيع الاستغناء عنها أو العمل بدونها، فطبيعة عملها تحتاج إلى السهر والتركيز طول الوقت. لكن عهود تحب القهوة منذ الصغر، حين كانت تشم رائحة فنجان أمها، وقد تغافلها وتمد إصبعها فيه لتلعقه. لا زالت تتذكر ما حكته أمها أنها كانت تفعل ذلك دائما فتلسعها القهوة الساخنة ولكنها لا تكف عن تكرار المحاولة. لقد كبر معها عشق القهوة.. ولكنها في نفس الوقت تكره من يربطها بفيروز أوالعمق!

أخذت رشفة، ثم بدأت تعمل بجد .

هي لا تخاف المبيت وحدها ككثير من الفتيات في سنها. تعودت على ذلك

من صغرها، بل إنها أحبت الوحدة، ولم تعد تطيق الجلوس مع زملائها في سكن واحد، ولا مع ذويها في بيت واحد. هي المنطوية في نظر الجميع، التي لا تحب الناس رغم اختلاطها بهم دوما. هكذا الوحدة تنمو بداخلنا وإن أصبحنا برفقة الجميع. الوحدة حالة، ولها قدسيتها، ومن الصعب اقتحام وحدة شخص بمواصفات عهود .

انتهت من عملها قبيل الفجر. يذكرها هذا بوقت خروجها من منزلها، الذي لم تعد له أبدا. دخلت سريرها لتنام، لكنها لا تجد النوم طالما وجدت طاقة في بطاريتها، أو النت في هاتفها. فتحت الفيس بوك، وبدأت تقلب به.. في هذا الوقت يكون كقرية خاوية، لا يوجد بها بشر تقريبا. تحب الفيس بوك كثيرا في هذا الوقت.. تصفحته قليلا، ثم دخلت لترى صندوقها الوارد .

لم تتعود أن ترد على غرباء إلا في حدود العمل وفقط. صارت تستطيع تمييز رسائل العمل من بين الكثيرين الذي يتوددون لها بحسن أو بسوء نية. ردت على بعض الرسائل، قبل أن تسقط فريسة النوم مرة واحدة.

* * *

٣

قبيلة الرحايمة

الصحراء الغربية - ربيع ١٩٨٠

تجمع عشرات الوافدين على قبيلة "لرحايمة" في الساحة، منتظرين خروج الكبير من كوخه أعلى التل. نزل رحيم إليهم بصحبة مساعديه، وجلس أسفل النخلة، على وسائد أعدها له أبناء قبليته. همَّ أحد الوافدين بالتقدم أمام أقرانه للتحدث مباشرة إليه، فأشار له شقيق الكبير وذراعه اليمنى "أمين" بالرجوع لمكانه، ثم قام واقفا، ليطرق الجميع السمع له. قال بصوت جهور:

- مافيش كبير في الرحايمة.. كلنا واحد. بس فيه قانون، ومفيش حد كبير على القانون.

في ظل إحدى النخلتين وقف يتابع الحكي عن أول أجداده، وكيف جاء لهذه المنطقة، وكيف ألقته الدنيا بحروبها خارج دياره، ليكون صاحب هذه الأرض المدافع عنها من كل محاولات الاغتصاب والاحتلال من القبائل البعيدة التي أتت محاولة كسر شوكته، بعد أن رحب بالوافدين وحفظ كرامتهم، فأحبوه وانتموا لأرضه ودافعوا عنها.. حكى لهم كيف وضع رحيم الكبير قانونا

يرحب بالجميع؛ ولكنه بعد بعض الوقت حرم خروج أي منهم بعد قبوله من الرحايمة، ومن يحاول فعلها يتابعونه ويقتلونه فور أن يعثروا عليه، عقابا على جريمة الخروج عن العائلة الكبيرة "الرحايمة". علا صوته وهو يقول لهم إن هذه الأرض قديما لم يكن بها سوى نخلتين، وقطيع صغير من الماعز، والجد الأول لهذه القبيلة وزوجته ست الحسن وسيدة نساء القبيلة "مارية". أشار إليهم لينظروا إلى الخيام والماشية والزاد والعتاد، ثم عاد يقول في توكيد إنهم ينتمون إلى الرحايمة قلبا وقالبا، وقوانينها تسري على الجميع هنا، وأن الرحايمة دم ودولة مستقلة عن كل ما يحطيها، حتى إنها لا تقع على خرائط الدولة. اتخذ صوته نبرة التحذير وهو يلفت نظرهم إلى أن هذه الدولة لا تحتاج لأحد، بل هي التي تكفي أبناءها احتياجاتهم.

أنهى حديثه، وارتسم على وجهه الفخر، وساد الصمت بين الحاضرين. تأمل في اللاجئين الجدد للحظة، ثم أشار لأحد مساعديه أن يرشدهم إلى المكان الذي سيعيشون فيه. لم يكن يعنيه تعدد الأنساب، فمن اليوم سيصير انتماؤهم واحدًا، للرحايمة ولا شيء بعدها.

وقبل أن يقوم الوافدون وينتشر الجميع لمداومة أعمالهم، جاء صوت من الكوخ المستقر أعلى التل يصرخ: "آن الأوان يا كبير .. آن الأوان".

تركهم رحيم مهرولا للأعلى، محدثا غبارا حول آثار أقدامه التي تنقلت على الرمال بخفة. دخل الكوخ، والجميع وراءه يتابعونه

منتظرين الخبر. جثا على ركبتيه عند رأس زوجته، ومسح جبينها من العرق، وهي تتألم وتحاول أن تكون قوية، ثم نظر لوالدتها التي تقوم برعايتها منذ أن حملت، وهي التي تقوم بتوليدها الآن.. نظرة لا تحمل أي معنى، إنه فقط يريد أن يرى زوجته بخير، وأن تنجب له "رحيم الصغير"، الذي سيرث قيادة القبيلة. إن قانون الرحايمة منذ صار لها قانون أن يسمى الابن الأول لكبير القبيلة "رحيم"، ويرث الحكم بعد أبيه .

كانت الخادمات تجرين هنا وهناك، تساعدن الجدة في إتمام مهمتها، وإخراج رحيم من بطن أمه للدنيا. حالة من الارتباك زادت قلقه، وازداد توتره أكثر مع صرخة أكبر من كل ما سبقها، انتهت بخروج رأس صغير، تبعه جسد ضئيل بسرعة، ثم هدأت الأم متسارعة الأنفاس بعدها. قطعت الجدة الحبل السري وهي تخبر الأب حديث الأبوة أنه قد رزق بغلام. مسحت الخادمة جسد الغلام، وألبسته الملابس الصغيرة البيضاء فبدا كالملاك، وهي تناوله لأبيه الذي حمله وأخذ يتأمله مبتسما، كان الخلاص قد خرج من رحم زوجته، وأخذته الجدة لتدفنه في الرمال إلى جوار الخيمة، بينما أزالت الخادمات آثار الولادة، ونظفن الفراش، فجلس رحيم على حافته إلى جوارها، وقرب الطفل إليها، فابتسمت في وهن وأغمضت عينيها مستسلمة لضعفها، فتركها لترتاح وخرج الكبير حاملا طفله، وأعطى أوامره لأمين أن يستعد الجميع للاحتفال بولي العهد .

أقيمت الاحتفالات في القبيلة لأسبوع كامل، ذبحت فيها الذبائح،

ووزع اللبن والتمر على جميع أبناء القبيلة، بل وكل من مر بها ضيفا، بلا حساب. سادت الفرحة بين قلوب الجميع، فهم يحبون كبيرهم حقًا، دوما كان الكبير عطوفا عليهم جميعا، وقف بجانبهم في محناتهم، وجعلهم يدا واحدة لمواجهة أي مشكلة تخص واحد منهم، أو لتردع أي معتدِ عليهم.

مرت السنون الأولى من حياة الصغير ممتعة وسعيدة على القبيلة كلها. ثم بدأ الصغير يتعلم القراءة والكتابة والحساب من كبار القبيلة الوافدين من الأماكن الأكثر مدنية، وقد ظهر على رحيم الصغير ذكاء ملحوظا في الفهم والتدوين، مما جعل عمه أمين، شقيق والده الوحيد يفكر في التماس شيء غير معتاد في القبيلة من أخيه. كان ذلك عند عودة رحيم وشقيقة أمين من الحضر، بعد أن سلموا مخزون تجارتهم للتجار، وعادوا بالنقود التي توفر لهم الاحتياجات الأخرى والسلاح لحماية القبيلة. كان رحيم الصغير معهما، وقد أظهر فهمًا يسبق سنه بسنوات، فنظر أمين لأخيه وقال بهدوء:

-رحيم بيتعلم بسرعة يا كبير.. ماتيجي نوديه مدارس البندر، يتعلم فيها ويبقى الوحيد في القبيلة اللي دخل مدارس، ويقدر يبقى الكبير في كل حاجة من بعدك.

لم يرزق أمين بالأطفال، وماتت زوجته في شبابها فلم يتزوج بعدها، حبا لها وانتظارا أن تجمعهما حياة أخرى، ولذا فقد أحب ابن أخيه من أعماقه، وأصبح جليسه ورفيقه، منذ أن ترك صدر أمه وتعلم السير. كان أمين يحب الصغير ومصلحته كشخص قبل أي

اعتبارات أخرى. ورأى العم في ابن أخيه نبوغا ضايقه أن يطفئه الجهل، حتى وإن عوَّضه مركزه في قبيلة صحراوية بدائية.

أوقف الكبير السيارة على مشارق القبيلة ، ترجل منها والضيق يظهر فيه مقلتيه. قال :

- ماتنمدمنيش يا أمين اني عرفتك الطريق للبندر.. ماتندمنيش اني بعتبرك دراعي اليمين مش أخويا بس.. رحيم هيعيش ويموت في الرحايمة.. وهيتعلم بدراعه زي أبوه. احمد ربنا ان الولد نايم وما سمعش اللي انت قلته ده.

لم يعقب أمين في وقتها، لكنه لم ييأس، واستمرت المناقشات بين الشقيقين في هذا الموضوع تفتح كلما فاجأهم الصغير بفعل يدل على نبوغه. إلى أن سمعتهما أم الغلام في إحدى المرات، حين قال الكبير والشرر يخرج من عينيه نحو شقيقه :

-لو فتحت الموضوع ده تاني تبقى ولا اخويا ولا من دمي، ومالكش تشوف الولد تاني .

غادر أمين منكس الرأس، غير متوقع ردة الفعل هذه من شقيقه. حزن رحيم لأجل أخيه، لكنه أخفى تأثره في قوة اعتادها الجميع منه. لم يكن أمين يعلم أنه يضغط على صراع يدور في عقل أخيه، ومفاضلة غير محسومة، ومخاوف لا حصر لها على الولد الصغير، وعلى قبيلة هي النور الذي يعيش به رحيم.

بعد أيام قليلة من هذه المناقشة، مرض رحيم الصغير، وأخــــذت

الحمى وعيه، ولم يستطع أحد مداواته في القبيلة. لم يتردد أحد الشقيقين في قرار أخذه بالسيارة إلى إحدى المستشفيات في الحضر ليتم علاجه، فركبت معهما الأم تحمل صغيرها في حضنها. أخذهم الكبير إلى مستشفى يليق بكبير قبيلة، فهو لن يخاطر في معالجة ابنه. لكن الاستقبال في المستشفى رفض استقبال المريض بدون أوراق رسمية يثبتون بها بياناته في دفاترهم. غضب رحيم وغضب معه أمين، وما كان منهما إلا أن أخرجا سلاحيهما، ودخلا به إلى الطبيب تحت تهديد السلاح، بينما كانت الأم تبكي بحرقة على وليدها الذي فقد وعيه تماما.

كشف الطبيب على الولد، وطلب من الرجلين إنزال سلاحهما، فلا حاجة له، ثم شرح لهم مرض رحيم، وسببه وطريقة علاجه، بسَّط للأم كيفية التعامل معه عند عودته وما يمكنه أن يأكل ويشرب، وما هو مسموح أو ممنوع إلى أن يتعافى. كان الطبيب حكيما للغاية، حرص على أن تحمل توجيهاته - بأسلوب غير مباشر - النصيحة للأب أن يغير مفهومه للقوة بالسلاح، وأن يعرف للطب وللعلم والنظام قيمته. ألقى سؤالا عن لماذا يرفض رحيم أن يسجل ابنه رسميا ليأخذ حقه في أشياء كثيرة، ثم أسرع يتكلم عن الدواء والعلاج دون أن ينتظر من الرجلين إجابة. وأخيرا، أخذت الزوجه ولدها في في حضنها، وسبقت زوجها وأخاه إلى السيارة، بينما ذهب الرجلان للاستقبال لدفع التكلفة، وترضية الموظفين بمنحة مالية كبديل عن اعتذار استكبر عنه رحيم .

بعد أن اشتريا الدواء من الصيدلية المجاورة للمستشفى، وفي طريقهما للسيارة، قال أمين لشقيقه في تأثر:

- أنا عايز رحيم يفضل في البندر يا كبير.. لازم يتعلم.. ولازم يكون جنب الحكما عشان يعالجوه لو تعب.. انت عندك خير كتير يكفي يعلمه ويخليه أحسن واحد في الدنيا، وللا انت مستغني عنه؟

لكن الكبير رد بنبرة مخنوقة :

- ولا مستغنى عنك يا أمين.. قلت لك ماتفتحش الموضوع ده تاني .. مفهوم؟

زفر أمين في يأس، وهز رأسه حزينا وهو يرد:

- مفهوم ..

دلف الأخوان إلى السيارة، ولم ينطق أحدهما بكلمة حتى وصلا للرحايمة، والزوجة تراقبهما بعينيها وهي تخمن ما صار بينهما، وعقلها لا يكف عن التفكير.

* * *

٤

كفر صقر

محافظة الشرقية - خريف ٢٠٠٨

خرج من الحمام حليق الذقن، واضعا المنشفة على كتفه.. أبدل ملابسه، بينما زوجته تعد له الإفطار. سمع صوتها تنادي على ابنتهما الوحيدة لتتناول الإفطار مع والدها، فجز على أسنانه ولم يعقب. ارتدى زيه الرسمي الأسود، ووضع الكتَّافتين في مكانهما بحرص، ثم خرج من غرفته متجها لباب الشقة مباشرة، فاستوقفته زوجته سائلة بتمنٍ يكاد يقع من مقلتيها :

– مش هتفطر معانا؟.. ماقعدناش مع بعض على الأكل من زمان.

حاول أن يتبسم، فظهرت ابتسامته باهتة لا طعم لها. قال في هدوء أقرب للبرود:

-متأخر على الشغل مش هقدر.

بملامح جادة، وشعر دب فيه الشيب، خرج من المنزل وأغلق الباب وراءه. إنها عادته.. لم يحدث مرة أن ودع زوجته بنظرة حانية،

أو ترك قبلة على جبين ابنته، التي لم تعد تعاني من بروده. فقط يجذب الباب وراءه وعليهما الرضا بما يمنحهما من معيشة رغدة .

في مركزالشرطة، على كرسي أسود وراء مكتبه الكبير، وقبل أن ينتهي من بعض الأوراق، ضغط على الجرس، ليدخل له عسكري الحراسة الواقف على باب المكتب. دون أن يرفع عينه إليه ودون أن يرد تحيته، طلب منه أن يحضر له الإفطار، فخرج العسكري لتنفيذ الأمر.

انتهى من مراجعة بعض الأوراق، ثم دخل عليه زميله في العمل، الذي لم يستطع الاجتهاد أو حصوله على الترقية بانتظام، فأصبح مرؤوسه. أدى زميله التحية بشكل روتيني، ثم جلس أمامه قائلا بابتسامة مشرقة ونبرة مرحة :

- وحيد باشا.. صباح الفل.

ضحك المأمور، هذه المرة من قلبه، لزميل دراسته الوحيد الذي تبقى يعمل معه. أشار له بيده، ليكمل كلامه ويدخل في صلب الموضوع الذي يريد، فاعتدل مراد في جلسته ثم قال:

-الواد ابني عايز أقدمله في الشرطة.. عايز نفسك معايا كده عشان نعديه من الاختبارات، واهو بالمرة يبقى لايق عشان يتجوز بنت المأمور بتاعنا.

ضحك وحيد من فرط الدهشة ثم قال :

- شرطة ليه مراد؟.. هيبقى انت وابنك؟.. كتير علينا، وبعدين انت اهبل يابني، مين ده اللي اجوزه بنتي.. قول كلام يدخل العقل يا مراد.

ضحكا سويا، ثم أردف وحيد:

- خلاص سيب الموضوع ده عليا.

- ربنا يباركلنا في عمرك يا باشا.

قالها مراد، ثم انصرف من المكتب، في نفس اللحظة دخل العسكري بالطعام، فوضعه على منضدة صغيرة في الركن. وخرج على الفور. تناول أفطاره مستمتعا بوحدته، ثم مرت الساعات الأولى من اليوم رتيبه عليه، بلا جديد. أثار طلب مراد شجونه. هل سيأتي يوم وتتزوج ابنته؟ أتراه يضايقه ذلك؟ رغم إنه أنجب البنت، التي صارت عروسا يتمناها زميله لابنه، إلا أنه يتمنى الولد. لا يدري ماذا يفعل، بعد أن أصيبت زوجته بأورام الرحم، وتم استئصاله. سنوات تضيع، وهو لا يستطيع الزواج عليها، ولا يستطيع أن يستسلم للقدر. تقول امرأته إنه تغيَّر كثيرا، فقد طال انتظاره لابنته سنين، وكان راضيا بهذا الانتظار، ولكنه بعد أن جاءت لم يرض بالبنت أبدًا!

مر اليوم عليه وهو لا يستطيع التخلص من الضيق، حتى أتى الغروب، فأخذ ينظر من شباك مكتبه، حتى أثقل الغضب كاهله، فوضع مسدسه في مكانه المخصص، ثم خرج من غرفته. مر بمراد ليدعوه معه، فامتنع بذوق، فلم يرهقه بالتوبيخ كعادته. يعلم وحيد

أن مراد مازال به شيئا نظيفا.. قطعة مضيئة لا يريد أن يطفئها أبدا. نزل وحيد درجات ودرجات.. نزل كثيرا، حتى ظن أنه في مقبرة، لن يخرج منها مرة أخرى للنور. فكر أن هذا حاله كزائر وسيد، فما بال حال المقيمين هنا .

دخل غرفة فارغة سوى من مكتب صغير، له كرسيان يقابلان بعضهما البعض، فجلس وطلب من العسكري الرابض على الباب أن يحضر له أحدهم. تحرك العسكري في خط مستقيم يعرفه جيدا، فتح غرفة رائحتها كريهة.. رائحة موتى.. تسع من الواقفين ثلاثين شخصا، ولكن يقيم فيها مائة شخص، مكتدسين على بعضهم البعض. مد يده، وسحب أحدهم وهو يهمس في أذنه :

- سامحني!

ابتسم الشاب "سيف" له، ابتسامة مميتة، ثم قال بصوت يكاد لا يعبر من شفتيه :

- الله المستعان

نظر العسكري للسقف، يريد أن يعبر حدوده لسابع سماء، ليسأل الله سؤالا واحدا؛ لماذا يترك عباده ليفجروا هكذا؟ جن جنونه وكاد أن يفقد صوابه، حين قال سيف بثبات لا يليق بحالته الرثة :

- إن الله عز وجل إذا أحَب عبدًا ابتلاه.. وانا راضي.

كان كلامه كأنه إجابة للسؤال دون أن يسمعه، ولم يعد هناك

المزيد ليقال.. تساءل العسكري في نفسه، التي أرهقها التواجد هنا، عن أي رضا يتكلم هذا الولد الذي يعرف جيدًا ما هو مقبل عليه، فقد جربه من قبل. العشرة أمتار التي تفصل بين الغرفتين أمست دهرا، دار فيه حديث صامت أطول من الزمن. أخيرًا، دخلا على وحيد الجالس في مكانه ينفث دخان سيجارته، ويبدو أقرب لظل أسود، حيث لا ضوء في الركن الذي يجلس فيه. بدأت وصلة من الأسئلة غير المنطقية، لهذا الشاب الذي لا يفعل شيء في حياته إلا التدريس لبعض الأطفال في المسجد، وهذه هي تهمته، وهذا ما يعاقب عليه. أشار وحيد للعسكري، ليضع الشريط الأسود على عين السجين، ثم قام من مكانه وبدأ رياضته المفضلة: التعذيب حتى فقدان الوعي أو الموت؛ لا يخرج أحدهم من هذه الغرفة إلا في حالة منهما. إن مات فهذه لا تعد مصيبة، ولا مشكلة فيها، لأن لا أحد يعلم عن مكان تواجد هؤلاء أو سبب اختفائهم. لكن فقدان الوعي شيء مؤسف، فهو يُفقد الضابط القائم على تعذيبهم لذة رؤية الألم على وجوههم، وفي رعشة أجسادتة وسماعه في صراخهم أو على الأقل أنينهم. بعد أن انتهى منه، بصق احتقارا لاسم ضحيته.. سيف! أي سيف هذا الذي يضربه حتى الموت ولا يفعل سوى كتم أنينه!.. منطق يختلف عما يراه الآخرين بالتأكيد، لكنه يكتفي بالاقتناع به ليعمى عن أي فكر آخر .

أشار بلا مبالاة للعسكري، ليعيد الشاب مرة أخرى لزنزاته، وخرج وهو يتنفس الصعداء، بعد الطاقة التي خرجت منه في هذه المعركة التي كان فيها الأقوى والرابح والمنتصر.

ظهر على السلم ينظف يده بمنشفة بيضاء صغيرة، ليرى مراد أمامه ينظر له باستياء، فتجاهل هذه النظرة كأن لم يرها، ثم أخذ أغراضه وغادر للمنزل، وقد عاد يحمل غضبًا شديدًا من زوجته. أليس هو الأولى بذكر يلحقه بكلية الشرطة من ابن مراد الذي يطلب وساطته؟!

وصل للمنزل يستشيط من كل شيء يمر بجانبه. فتح الباب، ولم يلق التحية على زوجته، التي صار تحت عينها سواد من كثرة البكاء على حالها، الذي لا ذنب لها فيه. لم تلتفت له ابنته، فلم يعد يعنيها أن يذهب أو يحضر، حتى إنها لم تعد تحزن إن أفرط في معاملته السيئة لها. دخل غرفته، فتابعته زوجته بسؤاله إن كان يريد أن تجهز له الطعام، فلم يلتفت لها بأي رد. كانت هذه هي القشة التي قسمت صبرها، وأنهت قدرتها على السكوت، فدخلت الغرفة وراءه تحاول أن تضع حلًا ونهاية لهذه المحنة التي لا تنتهي.

- أنا ماليش ذنب ان ربنا يصيبني بورم في الرحم.. أنا حملت مرتين في صبيان وسقطوا وماتوا.. يمكن ربنا مش عايز يديلك ولد!.. روح الكنيسة قل لهم انا عايز اتجوز عليها زي المسلمين عشان اجيب ولد يطلع شبهي.. قل لهم إني ماليش ذنب في كل ده وإني بحبك ومستحملة كل اللي بيحصل عشان عهود.

صرخت المرأة بما في صدرها، وخرجت وصفقت الباب وراءها، دون أن تنتظر منه ردًا.كانت هذه هي المرة الأولى التي يرى فيها غضبها وجها لوجه. صعدت الدماء لرأسه تغلي بما حدث. لم يعتد على ردة الفعل هذه، ومن الواضح أنها قد فاض بها منه، فقد كانت تغضب بداخلها ولا تظهر من ألمها شيئا. لم يستطع كبح جماح غضبه، وجد نفسه يخرج وراءها ليصرخ بصوت جهور :

-أنا عايز ولد يشيل اسمي.. يخش الشرطة ويطلع دكر زي ابوه.. هعمل ايه بيكي انتي وبنتك؟.. مرة بنت مرة مالكوش عوزة ولا فايدة في الدنيا.

نظرت له والقهر والدموع يملآن عينيها، استهلك الأمر طاقتها العصبية، ففقدت وعيها وسقطت ترتطم بالأرض. أسرعت إليها ابنتها، وأطلقت صرخة مدوية، وأفاق وحيد من غضبته ليتناول هاتفه ويتصل بالإسعاف لتنقلها إلى المستشفى. حضر الجيران مسرعين، بعد سماعهم لصرخة عهود. المجتمع هنا ليس مدنيا تماما، فأغلب القاطنين في الحي أتوا من الريف، يحملون عاداتهم معهم، حيث يعرفون أن المحنة تعني أن يقف الجار مؤازرًا لجاره .

وصلت الإسعاف مسرعة، فالمتصل له أهميته في المدينة ويعرفه الجميع. حملوها إلى المستشفى، وركبت معها ابنتها وهي تبكيها بحرقة، وتبعهم والدها بسيارته .

فحصها الطبيب جيدا، ثم طلب من زوجها أن يخرج معه كي تغير الممرضات للمريضة ملابسها بمساعدة الابنة .

خرج الطبيب مع وحيد، يجر الحديث معه، بعد رؤيته رتبته الشرطية، فهو لم يكن قد خلع ملابسه بعد، حين انفجر البركان في منزله. تعوَّد وحيد تلك المداهنات والمجاملة، تقربا لمنصبه، فلم يصد الطبيب، فطبيعة عمله علمته ألا يخسر فرصة اكتساب معرفة جديدة خاصة لبعض المهن الحساسة. ظلت عهود تبكي والدتها بحرقة، وهي تجلس بجانبها وتصلي لها أن يخرجها الرب من محنتها هذه. دخل الطبيب وحده، وسألها بسرعة قبل أن يعود أبوها، واستمع لما حدث في تفهم، ثم أمر الممرضة بحقن جرعة ما من عقار مهدئ في وريد المريضة، وأخذ يكتب ورقة الشرح الطبي لسبب دخولها إلى المستشفى، ويضع فيه طلب استدعاء استشاري نفسي.

قبل أن تحقن الممرضة العقار في وريد المريضة، صرخت بالطبيب، الذي ترك الأوراق وأسرع للمريضة، ليجد وجهها مصفرا وحدقتيها متسعتين، وجلدها بارد تماما ونبضها يكاد لا يحس. كانت الممرضة قد أسرعت بفتح أمبول الأتروبين، كما تعلمت دوما في مثل هذه الحالات، وأشار لها الطبيب أن تحقنها، وأمسك بالهاتف الداخلي يتصل بالعناية المركزة.

كان وحيد ينهي إجراءات دخول زوجته في استقبال المستشفى، فلما عاد لم يجدها بالاستقبال، وعرف أنها نقلت إلى العناية المركزة، وليس إلى قسم الأمراض الباطنة، كما كان مفترضا. لم يفهم ما يحدث، وسارع يبحث عن مكانها، لكن حين وصل، كانت مارية قد تركت له الحياة وما فيها، وهي غاضبة منه وناقمة على الحياة برفقته.

بكتها عهود حتى كادت دموعها تستحيل دما.. لن تغفر لأبيها ما فعل بأمها أبدًا. أقيمت مراسم الدفن، فكانت الرسميات أساس الموقف وليس الحزن، وملأت الرتب الميري قاعة العزاء. أما الأم الراقدة في التابوت الخشبي، فقد بدت لعهود كارهة لكل الحضور المواسين للأب، الذي لم تفكر ابنته إن كان حزينا حقا أو نادما، فقد قررت داخل نفسها استبعاد الاحتمالين، فودعت أمها لمثواها الأخير، ثم لم تعد عهود كما كانت، ولم ترجع مع أبيها للمنزل، وهو بكل بساطة تركها تفعل ما أرادت راضيا بحريته.

قضت الابنة سنواتها المدرسية المتبقية في بيت خالتها. صارت العلاقة بينها وبين أبيها بعض الأخبار المتبادلة بلا شغف وبعض الموافقات والتوقيعات بما إنه ولي الأمر الرسمي لها. سنتان ونصف بعدها قدمت أوراقها في جامعة الأسكندرية، وسافرت لتعيش هناك بعيدا عنه وعن كل ما يربطها به من ذكريات.



٥

روض الفرج

القاهرة - شتاء ٢٠١٦

بين ثنايا بنت المعز صباحا، كل شيء صاخب ومزدحم، كل شيء مغاير لكل مكان مرسي وعاصم هما صديقا عُمر، مرا بجميع مراحل حياتهما سويا. اجتازا الثانوية بمجموع عالٍ، مكنهما من دراسة الهندسة، ثم حصلا على تقديرات عالية، ولَكن لم تحالفهم الوساطة أو السند ليحصلا على وظيفة مناسبة بمؤهلهما. بحثا كثيرا عن عمل، فلم يجدا سوى فرصة عمل في أحد محلات الأيس كريم في وسط البلد، لم يرض بها مرسي في بادئ الأمر وأقنعه عاصم قائلا

- يا صاحبي لو انت عندك استعداد تمد ايدك لابوك تاخد تاني بعد كل مصاريف الثانوية والكلية.. انا بقى ماعنديش استعداد غير اني امدها عشان اديله.

نزلا من المترو، واستقلا مواصلة أخرى لمكان العمل. جلس الصديقان سويا وسرح عاصم بخياله في بلد آخر يحقق به حلما موؤدًا

- يللا يابني وصلنا.

نزلا من الميكروباص أمام المحل مباشرة. ارتدى عاصم زي العمل، ووقف على ماكينة النقود، وصديقه بجانب زملائه على ثلاجة الأيس كريم.

عاصم، الباشمهندس، صاحب البشرة الخمرية والعيون الواسعة البنية والذقن الحليق التي لا يطيق لحيته عليها أكثر من يومين، فلم ترق له أبدا كما إنها تضايقه في أداء عمله

***

تراصت الترابيزات في المقهى الذي تعود الصديقان الجلوس فيه يوميا. نفث مرسي دخان سيجارته، بينما عاصم يسحب كرسيا ليجلس بجوار صديقه الذي عاتبه قائلا:

- اتاخرت ليه ياعم.

أجاب عليه ضاحكا:

- كنت بغسل المواعين.

رد مرسي بنبرة ساخرة:

-نعم ياختي.

ضربه عاصم في كتفه، مناديا على عوض:

- ٢ شاي والنبي يا عوض سكر برة

رفع عوض حاجبه وقال:

- برة فين حضرتك

ضحك عاصم بهيستيرية ثم أجاب:

-مظبوط يا عوض.

التفت لمرسي ثم تابع حديثه:

- مافيش يا معلم، النهارده الحد أجازة واختي في الكلية وابويا في الشغل.. صحيت مالقتش حد في البيت، فبلبس وجايلك لاقيت كام طبق كده من امبارح متسابين قلت اغسلهم أساعد هايدي مرة من نفسها.

استعار مرسي وجها غير لائق في بلد لا تقدر الشهادات. سحب نفسا ثم طرده بضيق:

- يا عاصم احنا مش هينفع نفضل كده.. أنا كل يوم بتصعب عليا نفسي يا جدع.. هو انا واخد الهندسة عشان أبيع أيس كريم.

تخلى عاصم عن ابتسامته قائلا:

- هو انا مش زيك برضه.. وخريج زفت.. بس هنعمل ايه.. آدي الله وآدي حكمته.. مش عايز اخشلك في جو الشعارات وان في ناس مش لاقية شغل وبتنام من غير عشا، لأن ده مابقاش شعارات ده بقى حقيقي.. احنا في مصر فاهم يعني ايه ولا أشرحلك؟.. احنا هنا اللي معاه، معاه أوي.. واللي مامعهوش، مامعهوش خالص.

ربت مرسي على كتفه فازاحها:

- يابني انت مش فاهم يعني ايه مرتبي كله رايح على البيت وأختي؟.. انا يا شيخ مابجيبش لنفسي هدوم في أي مناسبة.. ده انا لو ميت كان حالي هيبقى أفضل.

لم يجد مرسي ما يقول، وأنقذه وصول عوض الذي أحضر أكواب الشاي مبتسما:

- سكر برة اهو يا هندسة.. فك كده وخليها على الله.

ابتسم الصديقان، فاعتذر عاصم لمرسي:

- معلش، بس انت من يوم ما اتخرجنا عمال تشتكي وانا ساكت.. خلاص الكيل طفح.

أخذ عاصم كوب الشاي، وبدأ في تناوله، وبدأ الآخر يتابع السيارات المارة في الشارع.. حك رأسه قليلا، ثم التفت لصديقه قائلا:

- أنا هسافر.

لم يلتف عاصم، ولكنه أجاب بهدوء:

- كان غيرك أشطر، البلد كلها عايزة تسافر.

- بس انا عندي اللي يسفرنا ..

قالها متحمسا، فأجابه:

- مش هاطلع من البلد بطريقة غير شرعية زي الخرفان في شوِلة.. والسفر الشرعي محتاج فلوس كتير.. فيزا وعقد وتذاكر طيِران.. انسى بقى يابني وعيش على أرض الواقع شوية.

أخذ مرسي رشفة من الشاي، ونفسا أخيرا من السيجارة، قبل أن يلقيها ثم يقول:

- خلاص ياعم، يبقى من هنا ورايح يوم الحد نطلع على مكاتب السفر ونشوف.. مش يمكن محتاجين مهندسين.

هز عاصم رأسه متفهما ضرورة السفر وإلحاح صديقه عليه. حاسب الصديقان على ما طلبا، وافترقا عند أول الشارع مغادرًا كل لمنزله، لتحضير أوراقه، للذهاب بها في الأسبوع المقبل لمكاتب السفريات.



٦

الأسكندرية

تشتاق إليه كثيرا.. تفتقد لمساته ومداعباته المجنونة في أي وقت. أحب ذلك، دون التقيد بمكان أو زمان، كلما أراد لمسها قام بذلك، كلما أراد احتضانها وضع يده على خصرها وضمها إليه، لتعرف أنه يمتلكها، ولا تعترض، فهي تحب ذلك كثيرا، وتشعر في لمساته بتقدير لها ولأنوثتها، كلما خرجا سويا ترجع بذكرى مثيرة تضعها بجانب مثيلاتها من مسببات السعادة والنشوة لها في ساعات اختلائها بنفسها. كانت نظرتها لنفسها مختلفه معه، وحدود المسموح مختلفة تماما عما بينها وبين أي إنسان سواه. تقول لنفسها دائما إنها تسمح له بالاقتراب منها لأنه يحبها، يريدها ويرغب فيها.. ولكن كيف يصبح لها؟ كيف تمتلكه؟!.. تضع لنفسها المبررات دوما، بأنه لا يوجد ما يقلقها منه، وهو لم يضغط عليها لفعل أي شيء لا تريده. إنها تثق فيه كثيرا، وهذا أبسط وصف لعلاقتها به، التي لا يوجد بها أي وعود أو قيود. وكيف لهم بتلك الوعود !!

كلما سألت نفسها عن حدتها مع الآخرين واتخاذ دور القديسة معهم، تجيب نفسها على الفور بأن روحها قديسة لم يدنسها شيء،

ولا يجروء أحد على الاقتراب منها، إلا هو الوحيد الذي أعلن نصره على كل محاولاتها في إثبات قدسية كل شيء فيها. ورغم أن اقترابه لها يأسرها، رفضت كثيرا الذهاب له بالمنزل. لم توافق أبدا على ذلك، ولا مرة، رغم إلحاحه

لم يتأخر تحقق مخاوفها.. كان ذلك يوم أن قررت أن تفاجئه وتحضر له طعامًا أعدته خصيصا له، فأقرب طريق إلى قلب الرجل – كما يقال – معدته. سترتدي شيئا جديدا يبهره.. وستأخذ منه وعدا غاليا بالفوز به للأبد مقابل قبولها لطلبه المتكرر دون ملل. قبل أن تغادر، قبلت رأس والدتها المريضة، وأوصت شقيقتها الصغيرة "أسماء" بها، وهي تعدها أنها في أقل من ساعتين ستكون قد عادت .

سلمى تعيش في منزل كبير يطل مباشرة على البحر، مع والدتها المريضة وأختها الوحيدة الأصغر منها، التي تعاني من الثانوية العامة معاناة جيلها. سلمى صاحبة الشعر البني الطويل، الذي يميل للحمرة حين تستخدم الحنَّاء، والقامة القصيرة، والعين الزرقاء الصافية والجسد البض الذي لم تصبه السمنة بسوء ولم تستطع النحافة مهاجمته، لتكتمل به أنوثتها الطاغية. بملامح واثقة وجميلة نزلت السلالم بمرح، ثم ركبت أول سيارة أجرة تصادفها، لتصل لوجهتها في وقت قصير. دخلت محل الملابس، ومرت على جميع الموديلات والأشكال، واختارت بعناية ما تريد. دخلت غرفة القياس، وقامت بارتداء الملابس الجديدة، وأخذت لنفسها صورة بهاتفها أمام المرآة، ثم فتحت متصفح "الواتس" وأرسلتها له مرفقة مع رسالة صغيرة:

"وحشتني" مع "إيموشن" قرد يضع يده على فمه. تخيلت ضحكه عندما يرى رسالتها.. دارت بينهما دردشة قصيرة، بإرساله قبلة، فشعرت بالنصر، لأن ذوقها أعجبه ونال استحسانه وفرّحه. دفعت ثمن ما اشترت، وخرجت من المحل عائدة إلى منزلها في أقل من الوقت الذي حددته لوالدتها. أعدت الطعام، وتبادلت معهما حديثا مرحا، واطمأنت على سير دراسة شقيقتها، وسألتها عن أخبارها.. ثم دخلت غرفتها تحاول أن تنام، لتبدأ غدا يوما شاقا وتجربه مثيرة.

أغمضت عينًا واحدة، وفتحت الأخرى تنظر بها لشاشة الموبايل، تريد أن تخطفه من مكانه إليها، لتخبره كم تريده. تسأل نفسها كيف يستطيع أن يقرأ ما بعينيها دون أن تتكلم. إنها تجد نفسها تحلق عاليا في حضرته، ولا تستطيع مقاومته .

دخلت على حسابها الشخصي، لتتابع ما يقوله قرّاؤها عنها.. ترى الحب في كلمات بعضهم، والشهوة في البعض الآخر، وفي الحالتين لا ترد على أحد، كأنها لم تقرا أي تعليق؛ رغم أنها تقرأهم جميعا، ويثير ذلك بداخلها شيئا من تحقيق الذات، أو حب النفس، أو كما تقول هي دائما: الانتصار، فبدخولها هذا العالم، انتصرت على ماضيها .

حاولت النوم، ولكن أبدا لم تنم وهو بالخارج، فلابد وأن تطمئن عليه في سريره أولا، ثم تأتي راحتها بعد ذلك. تتصل به، فلا تجد إجابة، فتعلم أنه منهمك في تصفح حسابه على الفيس بوك، فترسل

له رسالة ليطمئنها عليه لتنام. إنها تمنحه الاهتمام كما يجب أن يكون، والحب كما يتمنى الجميع، وليته يعرف ذلك.

أو أنه يعرفه، ولا يريد أن يواجه نفسه به.. هو يريد منها شيئا واحدا، وكان صريحا معها منذ البداية. الصداقة مهما تطورت بينهما، فآخرها صديقان. غريب هذا الزمن، تأخذ كل ما تريد تحت مسمى الصداقة!

بينما هو غارق في تواصله الاجتماعي مع متابعيه، جاءته رسالتها، التي شعر في حروفها بشغف حقيقي للاطمئنان عليه. أخذته رسالتها من بين الجميع، لجزيرة بعيدة لا يوجد فيها سواهما. أغلق شاشة الحاسوب المحمول أمامه، وفتح مربع الدردشة من هاتفه، ورد عليها وهو يقف في شرفته يتابع ويعد المارة أمامه على البحر في هذا الوقت المتاخر.

"أنا هنا".. يقولها ليربك كيانها أكثر. بستة حروف استطاع أن يطير من مكانه لمكانها لتشعر بدفئه بجانبها. ساد الصمت بينهما، وكل منهما يضع سماعته في أذنه، ويسمعان نفس الموسيقى، مراقبين المربع الصغير الذي يحتوي كلماتهما. لقد أحبته، ولكنها تخاف، وهو يشعر بخوفها واضطراب مشاعرها. أضاف ليطمئن قلبها: "أنا جنبك". لم تستطع الصبر، واتصلت به.. رد عليها وهو يضحك من براءة تصرفاتها، فكانت أول كلمة تقولها له لتخترق أذنه وتعبر إلى داخل قلبه:

- يارب الدنيا كلها رحيم

أسعده هذا الدعاء الصادق، لكنه جعله يعيد جميع حساباته معها. ولأول مرة، يشعر أنه يجد لها مكانا بداخله. إنه متأكد من إخلاصها له، ومن أن كل هذا يحدث معه هو فقط، لأنها تحبه. اعترف لنفسه أن مكانها عنده قد تخطى مساحة الصداقة. فتح باب الشقة ونزل السلم لشراء أي شيء يتناوله، شاكيا إليها أنه تعب من أكل الشارع، رغم أنها كلما سألته عن ذلك يجيب: "اتعودت". إنه يشتكي لها من ذلك، في الوقت الذي تحضر له هي مفاجأة من نوع خاص .

سألته عن سير يومه في الغد، فقال :

- احنا مش متفقين يا بنتي هشوفك بكره.. هخلص شغلي على ٣ كده ونتقابل ناكل حاجة ونخرج شوية.. وبعدين انا اتفقت مع ابراهيم خلاص اننا خارجين بكرة .

عقدت حاجبيها في ضيق من العزول الذي كلما أرادت أن تنفرد برحيم يظهر لها من العدم. تحب صديقه لطيب قلبه وخفة ظله، ولكن مازال عزولا تريد الخلاص منه. قالت بهدوء، راجية تفهمه لكلامها:

- ما تكنسل هيما بكره وخليك معايا بس.. خليه يخرج مع نفسه مش هيغلب يعني .

رد بحنق مركزًا على شيء واحد :

-هيما ايه يا سلمى، ما تتلمي يا ماما عشان مش اظبطك، اسمه ابراهيم .

ضحكت وهي تبعد المايكرفون حتى لا يسمعها ويزيد غضبه. أحبت غيرته عليها، وأسعدها كلامه. قالت بنبرة حانية، لتتجاوز غضبه وتجذبه إليها مرة أخرى :

- طب كنسله المرة دي.. عايزاك في موضوع مهم ومش هينفع يكون حد معانا .

طلب طعامه، وأخذه وعبر الشارع، وجلس أمام البحر يأكل بشهية، بعد أن اتفق معها أنهما سيتقابلان الساعة الثالثة في مكانهما المعتاد. لكنها طلبت منه ألا يغادر منزله قبل أن يتصل بها، وألا ينسى هذا كعادته في النسيان، لأنها غير واثقة في إمكانية حضورها في الموعد بدقة. هز رأسه موافقًا، وأغلق الخط معها، بعد أن أعطاها قبلته، وشعر بأنفاسها تحاوطه في آخر المكالمة. نظر إلى سواد البحر مرة أخيرة، محدثا نفسه بصوت واضح وهو يغادر: "بقالي كتير ماهربتش."!!..



٧

الأسكندرية

مر وقت طويل بعد آخر خطاب كتبته له. صدرها يمتلئ بالكثير، وتريد أن تلقي بما داخلها بين طياته. تستطيع أن تتخذ أيا من الجميع صديقا، تحكي له ما يضايقها، تسرد له قصتها وسبب ألمها المستمر رغم نجاحها. هل سبب وجودها هنا أنها وثقت في أحدهم، وتخيلت أنه سندها في الدنيا، فكان لها القشة التي كسرت ظهر البعير؟

فتحت عينيها، لترى أن الساعة تجاوزت الثانية بقليل، وبدون أي مبرر واضح أو سبب صريح أعطت لنفسها إجازة من الكلية. لا يوجد من يحاسبها على شيء، ولا يوجد هدف واحد يلزمها اجتياز دراستها. هي أصبحت ما تريد وهذا يكفيها .

أخذت معها كشكولها وقلمها، وتحركت إلى مكانها المعتاد. وفي طريقها على السور الصخري للبحر، تعثرت في رجل عجوز وشاب يجلس بجواره يصطادان. ولحسن حظها أنها تعثرت في الشاب، الذي ابتسم لها متفهمها، بعد أن ربت على كتف العجوز ليشرح له أنه لم يحدث شيء، ولا داعي لإلقاء سبة أو أخرى في وجه المسكينة التي لم تقصد شيئا. بعد أن غادرت مجال نظرهما، قال العجوز بغضب:

- مش تخلي بالها وهي ماشية

ابتسم الشاب وقال بوجه بشوش :

- أكيد ماكانتش تقصد

تجاوزتهما بمحطة أو بأكثر، ثم جلست بمفردها تنظر للبحر وكأنها تملأ عينها وكيانها بوجوده. أخرجت من حقيبتها الصغيرة أدواتها، وبدأت تكتب له الخطاب الثاني منذ قدومها للأسكندرية.. هل تتألم لهذه الدرجة مثل يوم وصولها؟ كتبت كل ما تريد.. كل ما طبق على صدرها في هذه الأيام أخرجته في هذه الورقة .

كانت نظراتها للبحر تشي بالكثير، وهي تراقب المارة كأنها تحسدهم على الهدوء والسكينة التي بداخلهم. تراقب ابتساماتهم، وتتمنى أن يقاسمها أحد مثل هذه السعادة. أنَّبت كثيرا نفسها على هذا الشعور، فربما هي أفضل من كثير منهم حالا، وربما المظاهر تخدعنا كثيرا. قطعت الخطاب من الكشكول، ووضعته في زجاجة بلاستيكية، وألقتها في البحر، ثم غادرت المكان في هدوء .

كانت قد انتهت من إعداد الصور قبل أن تنام ليلة أمس، ففتحت الجهاز وأرسلت الملف المضغوط لفريق التنظيم، حسب اتفاقها معهم على هذا اليوم. استقبل الفريق الملف، وشاهدوا الصور، وأعجبتهم كثيرا. وقبل أن يتفقوا معها على حفل آخر، أرسلوا لها باقي المبلغ، فتفقدت حسابها البنكي عن طريق الإنترنت، وتأكدت من وصول النقود، ثم عقدت معهم الاتفاق الثاني، وأصبحت هي المصور

الرسمي لهذه المكتبة، والراعي الرسمي لأي حدث تصويري فيه. كان هذا انتصارا جديدا لها. لقد انتصرت في كل الجبهات، ولكن يبقى هناك شيء مظلم بداخلها، تسبب به حدث مر عليه زمن طويل. تسأل نفسها دوما لماذا تغلق على نفسها بكل هذا الحرص؟ لماذا كل هذا الخوف؟ قيل في الأمثال اكسر للبنت ضلعا ينبت لها أربعة وعشرون آخرون، لكن بعد أن كسر الزمن لعهود ضلعا، هربت وقررت عدم المواجهة. كان هذا هو السبيل للعيش والتنفس بعيدا عن كل شيء .

فاجأتها السماء بالمطر، فحمدت الله أنها وصلت البيت قبل المطر. أخرجت يدها من النافذة، لتلامس حبات الماء بكفها الصغير، فشعرت بها تدغدغ مشاعرها برغبة في اللعب تحت المطر. كم تمنت بنات حواء أمورًا بسيطة، تبدو أتفه من الأمنيات، ولكن لا تستطيع إحداهن فعلها. غمرتها فجأة شحنة من الغضب، ورفضت تحكم الحياة فيها، فأسرعت ترتدي سترة جلدية سوداء على ملابسها، ونزلت مسرعة نحو البحر وتحت المطر .

المطر يغسلنا من همومنا، كما لا يستطيع أحد أن يفعل. من الذي حرم على الفتيات تحقيق أمنياتهن البسيطة؟!. رفعت رأسها للسماء تبحث عن مصدر المطر، ولا تدري هل هذه دموع السماء أم هي مجرد مياه زادت عن حاجتها فتلقيها علينا؟!. لا تهم الإجابة. تذكرت شيئا مهما، فأسرعت عائدة إلى شقتها تحضر كاميرتها.. إنها تسجل كل اللحظات التي تمر بها في الصور، وتستطيع أن تجعل

أيامها مميزة بالتقاط ما يثير فضولها. ما دفعها لتسرع أكثر أنها لمحت مركب صيد متوسطة الحجم تسير في البحر، وقد بدأت الأمواج في الصخب والضجر، ومن الواضح أن المراكبي يحاول المقاومة والمعافرة ليصل إلى بر الأمان، ولكن هذا المسار الإجباري الذي اختاره له البحر والمطر سويا يقتل أي مقاومة، رغم محاولاته المستميتة أن يقاوم. عادت تحمل كاميرتها، فأخذت بعض الصور للمركب الذي تؤرجحه الرياح والأمواج يمينا ويسارا. نظرت إلى لقطاتها فوجدتها ترضي غرورها كثيرًا، فابتسمت راضية، ثم فجأة سكن كل الصخب كأنه لم يكن! سكتت السماء عن إلقاء مائها، وهدأت الرياح والأمواج، وابتعدت المركب بعد أن امتلكت إرادتها ثانيةً، تاركةً لها صورا لم تكن تتخيل أن تلتقطها، لولا المصادفة التي أتاها بها المطر.



٨

الأسكندرية

في التاسعة صباحا، قرر رحيم تأجيل عمله من اليوم للغد، وأعطى نفسه إجازة يوما إضافيا. يعرف ما عليه فعله الآن للهروب.. دخل إحدى الغرف، ثم خرج منها بسنارة، وصندوق بلاستيكي صغير. ارتدى الأسود، ثم غادر المنزل مسرعا، ليلحق بـ "عم أمين"، الذي لم تمنعه شيخوخته عن الذهاب يوميا للبحر، الذي يرى فيه شبابه وراحته.

وصل في موعد وصول عم أمين للمكان. رآه وهو يجلس ويجهز معداته للصيد، وقد سبقه فقط بدقيقتين أو أقل. وبمجرد أن لمحه العجوز، ضربه بغيظ قائلا بلهجة جادة لا مرح فيها:

- اتأخرت ليه يلا

لم يكن بينهما موعد. لا يعرف عم أمين أن رحيم سيصطاد معه اليوم، ولكن طالما قرر الذهاب، فلابد أن ينتظره لا أن يأتي بعده. ضحك رحيم من قلبه، وجلس بجانبه وقال بمرح:

- اتاخرت ايه ياعم.. انت لسه واصل حالا

لم ينظر له العجوز. ألقى بسنارته في البحر وانتظر.. تماما كما ينتظر كل شيء لا يأتي أبدًا. وقبل أن يبدأ رحيم في تحضير حاجاته للصيد، ليهرب من كل شيء مع هذا العجوز، أرسل لسلمى يخبرها أنه سيكون خارج المنزل حتى الثانية والنصف، وسيعود ليبدل ملابسه ويذهب بها حيثما تريد .

يستطيع البحر أن يأخذ منه ما لا يطيق حمله، ويعطيه ما يريد من سعة الصدر والتحمل. ينتظر معه كل شيء لم يأت بعد. دائما يعطيه السلام النفسي رغم صعوبة كل شيء. بين الفنية والأخرى، كان ينظر بجواره ليحث العجوز على الكلام معه، لكن فقد العجوز الرغبة في أشياء كثيرة منذ زمن بعيد، وفقد معها الذاكرة، فلم يعد يعرف أحدًا، ولا يتذكر أحدًا. اعتزل الناس، فلم يعد يعرفه غير زوجته ورحيم، ولا يطيق تصرفاته غيرهما .

جلسا على السور الصخري، يراقب كل منهما سنارته، ليتسابقا نحو أفضل سمكة يخرج بها أحدهما، ليفاخر بها الآخر حتى المرة المقبلة التي ستجمعهما سويا. كان العجوز يعتمد على إحساس يده، فبصره كاد يهجر عينيه. أما رحيم، فكان يركز بصره في الماء. مر بهما الوقت ساعة تلو الأخرى، وصار بحوزة كل منهما أكثر من سمكة ذات حجم كبير ترضي غروره كصائد ماهر. ولحسن حظ رحيم، لم يكن هو صاحب أول سمكة تخرج من البحر اليوم، لئلا يعاقب على فعلته الشنيعة في حق العجوز برؤية الكآبة على وجهه حتى انتهائهما

من الصيد. تجاوزت الساعة الثالثة وهما في هذه الحالة من العشق للبحر، والتركيز في الصيد، حين تعثرت فتاة تسير بحذر على السور برحيم، ولحسن حظها أنها تعثرت فيه، فقد ابتسم لها متفهمها، بعد أن ربت على كتف العجوز ليشرح له أنه لم يحدث شيء، ولا داعي لإلقاء سبة أو أخرى في وجه المسكينة التي لم تقصد شيئا. بعد أن غادرت مجال نظرهما، قال العجوز بغضب لا سبب له:

- مش تخلي بالها وهي ماشية

ابتسم رحيم وقال بوجه بشوش :

- أكيد ماكانتش تقصد

انتبه رحيم للون الشمس وميلها، فنظر في ساعته، ليجدها تجاوزت الثالثة، فأخرج هاتفه بسرعة، ليجده مغلقًا، فقفز من مكانه، وقام بتفريغ السمك الذي اصطادة في صندوق عم أمين، وربت على كتفه، وترك قبلة على رأسه قائلا بأنفاس متلاحقة:

- كان هيفوتني ميعاد مهم يا حاج.. أشوفك قريب بقى وحلال عليك السمك.

جذبه العجوز بحنان وقال له :

-ماتتأخرش عليا يا رحيم.

قام بفتح هاتفه، ليجد رسالة نصيه من سلمى، تخبره أنها ستكون عنده في الثالثة. سار بخطوات مسرعة، ليركب أول سيارة أجرة

ليلحقها. اتصل بها، فلم تجب. خاف أن تكون قد ضاق صدرها بسبب هذا الموقف، واعتبرته عدم احترام لموعدها، خاصة أنه استشعر في صوتها أنها تريد قربه لشيء بها يحتاجه. أرسل لها رسالة يخبرها عما حدث، وأن الوقت أخذه في الصيد، واعتذر لها. لكن خاب ظنه، إذ لم يتلق منها ردا. توقع أنه سيجدها منتظرة أمام المنزل، أو في الكافيه أسفل البناية، ولكن لم يرها. مر بعينيه على الجهة المقابلة له، يفحص السائرين ذهابا وإيابا على الشاطئ، وحزن أنه أغضبها بتأخره دون سبب أو اعتذار. هل اتصلت به فوجدت هاتفه مغلقًا، فظنت أنه لم يرد مقابلتها؟ شعر بندم كبير على ما حدث منه دون قصد. في النهاية، صعد درجات السلم منكس الرأس، يفكر في طريقة يصالحها بها.

وفي هذا الوقت، كانت تحية تتحرك من بيتها، الذي يبعد قليلا عن البحر، في اتجاه زوجها أمين، لتأخذه مرة أخرى الي بيتهما الذي جمعهما منذ سنوات طويلة، والذي ظللها أمين فيه، واحتوته هي وصانت سره كل هذه المدة .



٩

الأسكندرية

لم تحكِ لعهود أي شيء عن رحيم. كيف تستطيع تبرير ما تفعل لأي أحد، فلن يفهمها أحد، حتى لو كانت أقرب الصديقات، ولن يصدق أحد أنها تحبه، وتؤمن أنه لن يستطيع احتواءها غيره. رغم قرب شقة عهود من البناية التي يقطن بها رحيم، إلا أن سلمى لم تفضل أن تتصل بصديقتها، وظلت تنتظر اتصال رحيم ليخبرها عن سبب تأخيره. طال انتظارها، يحركها حبه، رغم كل ما يمنعه عن الاستمرار معها. فكرت في انتظاره في الكافيه أسفل البناية، لكنها طردت الفكرة من رأسها، ثم صعدت السلالم بتوتر وخوف، وأخرجت المفتاح الذي أعطاه لها في مرة من المرات قائلا: "دي النسخة الوحيدة اللي مطلعها على مفتاح شقتي.. خليها معاكي، يمكن في يوم تحبي تعملي لي مفاجأة وآجي ألاقيكي في البيت". تعلم أنه يومها أعطاها المفتاح بنفاد صبر، وهو متيقن أنها لن تفعل هذا في يوم من الأيام. هي الأخرى أخذته وهي تضحك على فعلته، وهي متأكدة أنها لن تقدم على فعل هذا الأمر أبدا. ما الذي غير رأيها؟ ما هذا الشغف الذي بداخلها؟!!. فتحت الباب، دخلت..

ثم ألقت نظرة على الشقة الصغيرة التي تليق على رحيم بدرجة غير طبيعية.. هذا المكان يشبهه !

لفت انتباهها باب مغلق بغير إحكام، فتحركت بخطوات يدفعها الفضول لترى ما وراءه. قبل أن تصل، تذكرت ما معها من طعام، وأنها تريد تجهيزه في المطبخ، وتريد أن تعد السفرة قبل مجيئه. عدلت عن طريقها لصومعته، التي كادت أن تكشف لها رحيم الذي لا تعرفه.

توجهت للمطبخ، بخطوات ثابتة هذه المرة. دلفت بداخله، لترى فيه شكل حياة رحيم. مهمل بشكل ملحوظ، أول شيء تريد فعله هو غسل الأطباق التي تملأ الحوض، لتتمكن من تحضير المائدة له. لا تمر خمس دقائق إلا وتنظر في ساعتها، لترى أنها تجاوزت الثالثة بكثير، ومازال لم يأتِ، اتصل بها ولم تسمعه. انتهت من تنظيف المطبخ ولملمة الأشياء المبعثرة من الصالة، ووضعها في سلة المهملات. أصبحت طلة الصالة والطرقة المؤدية إلى المطبخ أكثر جمالا بعد لمستها.. أصبح كل شيء جاهزًا في انتظاره، واقتربت عقارب الساعة من الرابعة. شعرت بالإجهاد، فألقت نفسها على أقرب كرسي، لتستريح وتتفقد هاتفها، لتعيد الاتصال لتعرف أين هو. سمعت صوت المفتاح يعبر المزلاج ويدور به نصف دورة، لينفح الباب معلنا قدوم صاحبه .

نظر لها بعين مندهشة وثغر مبتسم. أغلق الباب، وأسند ظهره إليه وهو يضحك بصوت عالٍ على هذا المشهد الذي لم يكن ليتوقعه أو يتخيله .

دار بعينيه في الأرجاء، ليرى لمستها في كل شيء. نظر بتوجس لباب صومعته، ثم عاد بنظره إليها مبتسمًا. رأى في عينيها نفس نظرة الاطمئنان في حضرته، فتأكد أنها لم تدلف داخلها. كل هذا، ولم يدر بينهما حديث، بل ساد الصمت وتكلمت عيونهما بما يملأ صدريهما .

قاطعت الصمت وهي تقوم من كرسيها مرتبكة، تحاول إضفاء نبرة مرحة على صوتها وهي تقول:

- ايه رأيك في المفاجأة دي؟

اقتربت منه حتى وقفت أمامه، فنظر في عينيها بهدوء يشوبه التوجس مما هو قادم.. هي بهذه الخطوة تقذف في قلبه مسئولية تجاهها، لا يدري كيف سيتعامل معها، ولا يعرف هل هو يريد تحملها أم لا. تذكر كلامه معها في أول محادثة بينهما، وتأكيده لها أن ما بينهما لن يتخطى حد الصداقة، فاطمئن قلبه قليلا. لف ذراعه حولها، وضمها إليه هامسا في أذنها، مخترقا كل دروعها بلهيب أنفاسه :

- عظيمة.

قالها بنشوة منتصر ما لبث أن خرج من أرض المعركة، فأفلتت من ضمته، وخطت نحو السفرة واضعة يدها في وسطها، تشير إلى ما

أحضرته معها من طعام، متباهية برائحته التي اخترقت أنفه بنجاح. تقدم نحوها يرى ما أحضرت، وخطف نظرة سريعة على المطبخ، ليرى كيف تبدل حاله. شكرها وهو يجذب يديها نحو شفتيه يقبلهما. قال لها إنه لا يحب تناول الطعام في هذا المكان، وسيستمتع أكثر إن تناوله وهو واقف في مطبخه، وطلب منها أن تنقل الأطباق للمطبخ، لحين عودته. غاب دقيقتين في صومعته، ثم خرج منها وأغلق بابها بمفتاح صغير أسكنه جيبه، ودخل وراءها المطبخ ووقف بجانبها يتناولان الطعام معها، تارة ينظر إليها بعين منتشية، وتارة يضحك معها ويأخذ اللقيمات من يدها قبل أن تضعها في فمها. كانت لا تدري ما سيفكر فيه بعد قدومها إليه بنفسها، لكنها كانت تطرد أفكارها لتصفو لها دقائق من السعادة، وتقنع نفسها أنهه يعرفها جيدا وهي تخال أنها تعرفه.

انتهيا من تناول الطعام، فاتجهت إلى الحوض لتغسل يدها. تحرك إليها، حتى أصبح وراءها مباشرة. اقترب أكثر، لتصل يده بجانب يدها للمياه، فغسل يده بالماء المتساقط من يدها، وهما يتضاحكان، وبيدها وضع الصابون على شفتيه ليزيل أثر الطعام.

فجأة، رجع عنها.. ابتعد عن حصارها الذي حرك جبلهُ معلنا الخضوع أمامها. قرر عدم الخضوع. أهذا ما أراده منذ عرفها، أن تقع في حبائله، وعندما ينتصر تكون النتيجة أن يبعد عنها؟ !

رأت ارتعاشته، فنظرت إليه تسأله بعينيها عما يدور بداخله،

فأجابها بعين لامعة وبال منشغل. هل يريدها أم لا، هو نفسه لا يعلم الإجابة!

خرجا من المطبخ إلى الصالة، فاختار كرسيا ليجلس عليه وحده ولا يمكنها الجلوس إلى جواره. كلما اقتربت منه، حاول أن يقترب، ولكن دون جدوى؛ هناك حائل بينه وبينها لا يعلم مصدره. كان يشبه سمكة تربت في حوض زجاجي، وجاء وقت تحريرها فخافت من البحر، وعادت مرة أخرى للحوض، كما حاصره الآن سجنه الذي لم يستطع أن يهرب منه، رغم محاولاته المستميتة. تذكر كل مرة كان يضمها فيها عند لقائهما في الخارج، ومشاعره التي كانت تثار بمجرد اقترابها منه.. احتياجه لاجتياح حصنها المنيع كما يريد الرجال، وكما يريد هو الذي لا يختلف عنهم في شيء، لكنها تراه مختلفا. هو حقا اختلف عنهم.. عند تحقيق المراد، تذكر قول العم أمين أنه لا يمكنه الهروب من مصيرة، ومهما طال الهروب لا بد من أن يواجه مصيره الذي كتب عليه منذ مئات السنين. تلك السنين التي أهلكته ثقلا على كتفه.. تلك السنين التي جعلت من الجميع أصدقاء له، لا يستطيع أن يدنو من حصن أحدهم ليكون له وطنا وسكنا .

سألها عن سبب وجودها هنا، فقالت بقلق :

- حاولت أفرحك، حاولت اثبتلك اني بحبك، حاولت اكون جنبك زي ما اتمنيت دايما .

يعلم أنه ليس ذنبها ما يجري له. قام، وجذبها من يدها.. دخل بها غرفة جانبية، بها أشياء كثيرة وسرير صغير، ألقى بجسده عليه، وأمرها بعينيه أن تستلقي بجانبه. فعلت لأنها تريده، تتمنى أن يصبح بداخلها.. استلقت بجانبه، فألقى برأسه على صدرها، وفي دقائق غاص في سبات عميق. وهي لم يغمض لها جفن، وظلت تراقب تتابع أنفاسه الرابضة فوقها.



١٠

القاهرة

وفي شقة لا يوجد بها سوى غرفتين، تتوسطهما صالة طويلة، على جانبها مطبخ متوسط وحمام صغير، جلس الحاج ذكي على الأريكة يتابع مباراة الدوري المهمة بين الأهلى والزمالك، بينما عاصم وأخته يحضران وجبة العشاء.. خرج عاصم على والده بالطعام مبتسما، وقال بمرح:

- هاتي يا هايدي حباية الضغط لأبوكي عشان الأهلى شكله هيكسب الماتش ده.

تناول والده رغيفين من الخبر، وبدأ يفركهما في بعضهما لتتساقط منهما الردة، ثم قطع من أحدهما لقيمة صغيرة وغمسها في الفول قائلا:

- ورحمة أمك أبدا.. يابني الزمالك جايب شوية لعيبة انما ايه.. عنب.

ضحكت هايدي من كلام والدها، وجلست هي وأخوها على أرض الغرفة ليتناولا الطعام مع والدهما. قال عاصم محدثا والده:

-يوم الحد الجاي يا حاج هروح اقدم ورقي في كام مكتب سفريات كده يمكن ربنا يكرم.

تغيرت ملامح والده، الذي لا يملك في الدنيا سواهما، ويعتبره الصديق والابن والسند في هذه الدنيا.. لكنه يعلم أن السفر يكاد يكون الوسيلة الوحيدة كي تتحسن حالته، على الأقل نفسيا. ربت الأب على كتف ابنه، ثم رد بابتسامة حاول يداري بها حزنه:

- ربنا معاك يابني.. وان شاء الله تلاقي اللي تتمناه.

نظر عاصم لأخته، لكنها لم تجب. عينها التي ظهر بها الوجع والحزن لمجرد طرح الفكرة كانت تبوح بما داخلها. أكملوا الطعام بدون أي كلام إضافي، ثم حمل مع أخته الأطباق للمطبخ، وهناك عاد يسألها عن رأيها:

- ايه رأيك في موضوع السفر؟

اقشعر بدنها من سؤاله.. بمجرد تخيلها حياتها بدون أخيها، الذي يعني لها الكثير. لم يكن أبدا الأخ المتغطرس الذي يمارس سلطته عليها، بل صديقًا وحبيبًا يدللها عند احتياجها لهذا الشعور.. هو الذي إذا تأخر عن صلاته في المسجد أَمَّها في الصلاة وصلى بها في البيت، والذي يهديها الأشياء البسيطة التي يعرف إعجابها بها. يكفيه توليه مسؤوليتها ومصاريفها واحتياجاتها عن رضا ورجولة. ابتسمت في النهاية وقالت له:

- لو بتسألني انه سهل عليَّ يبقى طبعا مش سهل.. بس الأصعب أني أكون عارفة ان دي مصلحتك وأقول لك ماتسافرش

ابتسم لها ابتسامة باهتة، ثم تركها ودخل إلى فراشه، واستلقى فيه يفكر فيما هو آت .

انتهت هايدي من غسل الأطباق وإعداد الشاي، وذهبت بكوب لوالدها، ثم دخلت بالآخر لعاصم. اعتدل يجلس ليتناول منها كوبه، فجلست بجانبه تحاول أن تستجمع كلماتها فيختنق الكلام في حلقها، حتى غلبتها دمعة وسقطت على خدها، ولمحها عاصم فوضع الكوب جانبها وضمها لصدره.

- مالك بس يا حبيبتي! .. الموضوع لسة فكرة وبتعيطي.. أُمال لما اسافر هتعملي ايه؟

اختلج صدرها ضيقا من مرارة الموقف، ثم أجابت:

- يا عاصم انت مش متخيل البيت من غيرك يعني ايه.. أنا كل يوم بافضل سهرانة بخاف أنام وانت بره البيت.. أنا عارفة ان السفر كويس ليك.. بس انا معرفش أعيش من غيرك.

ربت على رأسها في حنان وقال:

- عندك حق. وبابا كمان كبر ومحتاجني معاه.. أنا عارف ده كله بس مرسي بقى زنان قوي في الموضوع ده.. معلش يا حبيبتي انا هتصرف إن شاء الله ومش هاسافر.

ارتسم الاطمئنان على وجه هايدي، ثم قالت وفرحتها تنتصر على حيرتها:

- طيب اشرب بقى الشاي عشان هيبرد.

تركته لتذهب إلى كتبها، فقد أنهت أعمال البيت وحان وقت المذاكرة. التقط هو كوب الشاي، ومدد ساقيه مرة أخرى، وبدأ يفكر في الأمر؛ لكنه بعد دقائق قليلة ذهب في نوم عميق .

أول ما فعله بعد أن صحا من نومه، كان أن أمسك بهاتفه، واتصل على مرسي يخبره ما دار بينه وبين أبيه وأخته، فانزعج صديقه لسماع الأخبار وأنهى المكالمة قائلا:

-هنشوف الموضوع ده لما نتقابل يا عاصم.

* * *

كانت الساعة تمام التاسعة، فقام من فراشه في هدوء، وكما هو متوقع، لم يجد أحدًا في المنزل، فوالده يغادر في تمام السادسة إلى عمله، وهايدي تتبعه في الثامنة لتذهب إلى كليتها. أخذ حمامًا سريعا، وخطف ركعتي الصبح، قبل أن يرتدي ملابسه مسرعا وينزل ليقابل صديقه أمام محطة المترو .

- انتم عيلة مجنونة على فكرة.. هو أبوك عاجبه حالك كده؟

حاول عاصم التهوين من انفعال صديقه، وافتعال ضحكة مرحة، فرد بسخرية:

- اه ياعم ومعانا شهادة معاملة اطفال.

لكن عاصم طيَّب خاطره، ثم شرح له ما غفل عنه من أمور، مثل كبر سن والده واحتياج شقيقته لوجوده. حاول فتح باب أمل جديد أمام مرسي، فقال إن باستطاعتهما استخدام الأموال التي سينفقها ليتمم السفر بتوظيفها بطريقة صحيحة في مشروع صغير، وبخبرتهما وذكائهما يستطيعان أن يجعلا من المشروع الصغير عملاقًا مع مرور الزمن. قال له إن هذا يجعلهما يعملان بشهادة الهندسة، وفي نفس الوقت لا يترك من يحتاجونه والذين هم أهم ما عنده في الحياة. قطع كلامهما وصولهما للعمل، وليمر بهما اليوم روتينيا لا يوجد به جديد .

في طريق العودة، استوقفهما أمين شرطة:

- جايين منين كده يا بهوات.

حاول مرسي أن يندفع كعادته، فأمسك به عاصم ليصمت تماما، ثم رد هو بهدوء:

-من الشغل يا باشا في وسط البلد.

- فين بطايقكم.

قالها الأمين بضيق واقتضاب، فأخرج مرسي بطاقته وهو ينفخ ضيقا، فلاحظه الأمين، فأخذ منه البطاقة ثم أردف:

- وبتنفخ ليه يا روح أمك.

ناول عاصم البطاقة للأمين قائلا:

-ليه كده يا حضرة الأمين.. احنا مهندسين برضه مش بلطجية.

تمم على طبنجته، ثم زفر بضيق وهو ينظر للبطاقتين، بينما عاصم ينظر إلى صديقه في قوة، كي يتمالك أعصابه حتى يتخلصا من الموقف الثقيل:

- واضربلك انا بقى تعظيم سلام عشان مهندس يعني ولا ايه!

أعطاهما الأمين تحقيقي الشخصية، موجهًا النصيحة لعاصم:

- قول لصاحبك ماياخدش الأمور على أعصابه كده عشان هيتعب.

كظم عاصم غيظه، فقد كان يعرف نتيجة تهوره إن حدث منهما أي رد فعل. لم يكن يوما جبانًا، ولكنه لم يرد أن يقع في أي مشكلة، لأن والده وأخته في أمس الحاجة لوجوده. بعد أن ابتعد الأمين إلى حال سبيله، صاح به مرسي:

- أنا مش هقعد في البلد دي تاني.. أنا هجهز ورقي وأغور في داهية.

حاول أن يهدئ من روع صديقه.. لم يعاتبه على اتهامه له بقلة الحيلة والجبن، فقد كان بركانًا ثار ولا مجال لإعادته للسكون. سأله مرسي:

- ها بقى ياعم.. لسة مصمم تقعد؟

ضاقت الدنيا من حوله، وتلاحقت أنفاسه.. جرى الدم في عروقه بما يختزن بداخله من وجع وحزن على حاله، فغذَّى كل خلية في جسده بالوجع، وانفجر في صديقه:

- أيوة.. أنا ماليش مكان غيرها.. مش حبًا فيها.. أنا محبوس فيها يا مرسي.. أبويا وأختي غصب عني مش قادر أسيبهم.. بص يا صاحبي، جهز ورقك وسافر.. وانا لما ألاقي ظروفي تسمح واتطمن على أختي هابقى أشوف موضوع السفر ده.

وصلا للحارة التي يقطنان بها، فافترقا، دخل عاصم البيت، فألقى التحية على والده وأخته، التي لاحظت اكتئابه، فسألته عن يومه، فحمد الله كعادته، ولكنها كررت السؤال:

-مالك يا عاصم فيك ايه؟

جلس على حافة السرير، ودفن رأسه بين يديه، وأخذ نفسا عميقا خرج بزفير مُتعب.. تنهيدة تخبر عن الكثير بداخله، لن يتكلم عنه. تركته بمفرده، فهي تعرف أخاها جيدا، فلم تلح عليه. بعد قليل، نادته من الخارج ليتناول العشاء معهما، فخرج إليهما يحاول أن يبدو هادئا. لكن لم يكن أمره ليخفى عليهما، وسألاه أكثر من مرة، فأنهى طعامه سريعا وتركهما لينام، متحججا بإرهاق العمل.

مرت الأيام صعبة عليه هو وصديقه، حتى تمكن مرسي من إنهاء أوراقه، ودفع مبلغا ماليا كبيرا لشراء عقد عمل في السعودية. فرح عاصم له وحزن لفراقه المرتقب. يوم سفره، ذهب معه ليوصله

للمطار، بعد أن ودَّع مرسي والديه وإخوته. ركب مع صديقه التاكسي، فربت عاصم على كتف صديقه:

- توصل بالسلامة يا وحش.

تعالت ضحكات الصديقين، وهما يسترجعان مواقف جمعتهما سويا، وانتهى الكلام بمعاتبة مرسي لصديقه:

- مش كان زمانك مسافر معايا؟

شرد عاصم للحظة، ثم أجاب بقلة حيلة:

-ربنا مش عايز كده .. وبعدين سافر وظبط وانا هحصلك أن شاء الله.

نزلا عند باب صالة المطار، فساعد عاصم صديقه في وضع أشيائه على عربة يدوية، ودخل معه حتى سلم الحقائب واستلم تذكرة الصعود للطائرة، ووقف في طابور فحص وختم جوازات السفر، فتركه وبدأ مشوار العودة، وهو يشعر بغضب من نفسه ومن كل ما حوله، ويفكر أن مرسي كان على صواب ..

"أنا مش واخد هندسة معماري عشان أبيع أيس كريم.. أنا لازم اشوف حل".

فور وصوله، نادى هايدي، وجلس يشرح لها ما ينوي. كان يدخر معها مبلغًا من المال، يبعده عن يده ليجده مع أي ظرف طارئ. لم تكن مقتنعة تماما بما يقول، لكنها لم تشأ أن تطفئ حماسه، خاصة

وهي تفهم جيدا حالته بعد أن ودع صديقه، وضحى بفرصة السفر ليبقى معهما. أعطته من المبلغ ما يكفيه لشراء جهاز كمبيوتر، وقدم الطلب لتوصيل الإنترنت للبيت، وأصبح شغله الشاغل هو وشقيقته هو البحث عن وظائف شاغرة لمؤهله. بدأ يسعى من جديد في هذا الطريق، بعد أن كان فقد الأمل فيه. تمنى من الله أن يرضيه متشفعا إليه برفضه للسفر برًا بأهله. مرت الأيام عليه بعد هذا القرار بطيئة، وبدا عمله ثقيلا على نفسه، بسبب نيته في المغادرة.

حتى جاء يوم مزدحم، لم يجد فيه فرصة لشرب كوب من الشاي، وبلغ به الضجر من العمل مبلغه، اتصلت به شقيقته تداعبه بنبرة صوت مرحة:

-هاتلي معاك حاجة حلوة وانت جاي.

لم يكن يملك جهدا للمزاح، والزبائن أمامه بوجوه متحفزة، فسألها في اقتضاب عما تريد، فتابعت:

- فك التكشيرة يا حبيبي.. شركة المقاولات ردت، وعندك إنترفيو كمان يومين.

ارتسمت الابتسامة على محياه، لا يدري أللأمل أم شفقة بسذاجة أخته التي تعتقد أن تلك المقابلات تعني فرصة حقيقية. لم تفهم بعد أن تلك المقابلات ليست في الغالب إلا صورة وهمية شرعية تغطي اختيارًا مسبقًا لمن يحمل التوصية الأثقل. أغلق الخط دون أن يحبط أملها، واستمر في عمله كأنه لم يسمع شيئا.

* * *

١١

الأسكندرية - ربيع ٢٠١٦

انتهى رحيم من صلاة الجمعة، في مسجد صغير بجانب بنايته. مهما فعل من خطايا في حياته، فهو حريص على صلاة الجمعة، قانعا بها تغسل روحه كل أسبوع. خرج من المسجد ليتمشى قليلا على البحر، ويتحدث معه، ويخرج له ما في صدره.. يحكي له ما بداخله تجاه سلمى، التي لا يعرف ماهيتها داخله.. كيف له لا يحبها وهي تعشقه؟ أهو حقا لا يحبها؟! وقبل أن يصل إلى قرار في هذا الموضوع، وجدها تتصل عليه، فابتسم وضغط على الزر ليجيب ضاحكا:

- هو انا كل ما افكر فيكي ألاقيكي ناطالي كده.. كده كتير على فكرة .

ضحكت وقالت في سعادة :

- هتلاقيني دايما حواليك كده.

ثم تابعت، بعد أن لاحظت صوت البحر قريبا منه:

-انت في الشارع بتعمل ايه؟

تنفس بعمق ثم قال :

- بمشي رجلي شوية، عشان عندي شغل كتير، فقلت أفك شوية قبله .

استمر الحديث بينهما طويلا. هي لا تمل الحديث معه مهما طال الوقت، وهو يستمتع بحديثها. وصل إلى محطة الرمل وهما لا يزالان يثرثران، فلاحظ تجمع الشباب أمام ساحة مسجد القائد إبراهيم، يرفعون بعض الشعارات. بدأت الأعداد في ازدياد ملحوظ، وبدأت الهتافات تعلو وتعلو، فأنهى كلامه مع سلمى ليراقب ما يحدث من بعيد، من باب الفضول .

وبينما يتسكع محافظا على مسافة آمنة بينه وأولئك المتجمهرين، وقعت عينه على فتاة تلتقط الصور للمتظاهرين من أكثر من مكان، فارتسمت ابتسامه على وجهه، قد لا تناسب الموقف تماما. جذبته الفتاة ليراقبها جيدا، وليجدها تتنقل من مكان لآخر لتلتقط الصور بأكثر من طريقة. تحرك في اتجاهها بوجه ضحوك على غير العادة. لم يستطع السيطرة على الشعور الذي اقتحمه لحظة رؤية عينه لها.. أخذه إعصار عجيب، ونسي كل شيء حوله، وغفلت عينه عن كل شيء سواها، حتى وجد نفسه يسرع نحوها ويقف أمام كاميرتها ويقول بصوت واثق بلا تردد :

- تتجوزيني؟

نظرت له بعين زاد اتساعها، وبملامح جامدة قالت :

- بس يلا.

ضاق صدره، وأمسك رسغها، وهو يقول بصوت حاد:

- فيه واحدة تقول لجوزها يلا !!

أفلتت نفسها بصعوبة من يده، ونظرت له نظرة دونية، ثم تحركت بعيدا عنه لتكمل ما جاءت لأجله. ظل يراقبها وهي تتحرك بخفة، وشعرها يتطاير حولها مع كل لقطة تلتقطها لهم، حتى هجم أفراد الأمن على المظاهرة بعربات الشرطة والأمن المركزي، وبدؤوا في القبض العشوائي على المتظاهرين. رأى أحد العساكر يتجه ناحيتها ويضع يده عليها محاولا جرَّها إلى سيارة الشرطة، فهرول ناحيتها محاولا تخليصها من يد الأمين، الذي قابله بسبة، ثم ظهر زملاؤه يساعدونه في وضعهما في سيارة الشرطة. وبحركة خفيفة، أبدلت الذاكرة "كارت الميموري" الخاصة بالكاميرا، بأخرى يوجد بها صور لا تخص هذا اليوم، وأخفت ما صورته في ملابسها.

انتبهت أخيرا لوجوده إلى جوارها، فنظرت له باندهاش.. كيف له أن يلقي بنفسه في التهلكة، محاولا تخلصيها من يد الأمن؟ كان بجانبها، وبجانبه أمين شرطة يحكم قبضته عليهما، فقال لها غير مباليا بما هما فيه:

- قولتي ايه؟

نظرت له وهي تجز بأسنانها على شفتها السفلية وقالت:

- بقولك ايه.. مش ناقصة جنان دلوقتي خالص.

- مش أحسن من الجنان اللي بره ده .

صمتت، فحاول ألا يزعجها. يتخيل شعورها الآن وهي محتجزة ويتم ترحيلها للقسم للتحقيق معها، وهي لم ترتكب جرما. يعرف ذلك لأنه درس القانون ويحفظه عن ظهر قلب. إنه - بعد أن درس القانون وعرف خباياه - قرر أن يتركه لأصحابه، أولئك الذين عرفوا طرق التحايل به واستغلاله للتربح لا للعدل، ذلك القانون الذي لا يحمي الطيبين "المغفلين" .

في أقل من ساعة، كانوا في طرقة طويلة داخل القسم، تجمع الشباب والبنات، يفصل بينهم أمناء الشرطة. لم تغب عينه عنها طوال وقت انتظارهم لعرضهم على النيابة في الساعات المقبلة. أرسل رسالة لصديقه إبراهيم، ليكون معه في هذا المأزق :

- هو انت مش محامي؟ البس بدلة محترمة كده وتعالي خرجني من القسم

كانت عهود متوترة، لا تدري ماذا تفعل، هل تتصل بأبيها ليخرجها من هذا المكان، أم تواجه مصيرها وحدها؟

***

حاول أن يسأل عنها الشباب حوله، فلم يخبره أحد إلا أنها من وقت لآخر تظهر في التجمعات والمظاهرات لتغطيها وتصورها. كان يحاول أن يطمئنها بنظرة باسمة، لكنها كانت تدير وجهها عنه كلما تلاقت أبصارهما. وصل إبراهيم، وتلفت حوله، حتى عثر على

رحيم، فأقبل عليه بمرح وهو يلقي التحية على أمناء الشرطة الذين يعرفونه ومن الواضح أن علاقته بهم جيدة ..

- من امتى يا رحيم وانت ليك في المظاهرات .

أشار له أن يصمت، بعد أن لاحظ ابتسامتها الساخرة، ثم قال له بصوت خفيض :

- انا هعرف اتصرف جوه انا.. انا مش جايبك عشاني.

ثم أشار بيده لعهود، التي وقفت بين الفتيات الأخريات وقال :

- شايف البنت دي.. انت هتخش معاها النيابة وتخرجها بأي شكل.. حتى لو بكفالة ومالكش دعوة بأي فلوس .

نظر لصديقه بتعجب، ثم هز رأسه موافقا على كلامه، فتابع رحيم :

- روح قول لها بقى المفروض تقول ايه جوه لوكيل النيابة، وعرفها انك المحامي اللي هتخش معاها .

لم يكن إبراهيم يفهم شيئا من كل هذا، ولم يستوعب لماذا يهتم رحيم بتلك الفتاة إلى درجة أن يقدمها على نفسه. كان يظن أن سلمى تمتلك قلب صديقه، فمتى ظهرت تلك الفتاة في حياته، ودون أن يعرف بها، وهو الذي يعرف كل صغيرة وكبيرة في حياة رحيم؟!

نفذ إبراهيم ما طلبه منه صديقه، وذهب لعهود وأخبرها بما ستقول أمام وكيل النيابة، فاستسلمت لكلامه، فهي لن ترفض نجدة

أرسلتها السماء من حيث لا تدري. إنها لا تريد أن تبقى في هذا المكان ولا دقيقة واحدة. سارت عقارب الساعة ببطء على الجميع، حتى بدأ التحقيق ودخل الشباب إلى وكيل النيابة في مجموعات، فكانت مجموعة رحيم الأولى. سألهم جماعيا عما كانوا يفعلون وما سبب تجمهرهم، فتكلم الجميع في وقت واحد، فأصبح صوتهم ضجيجا لا يميز أحد كلمة واحدة مما يقولون، فقاطعهم رحيم بصوت عالٍ :

- يا باشا أنا كنت نازل أجيب فطار بصيت لقيت زحمة قلت اتفرج فخدوني معاهم وانا مش مع حد والله يا باشا .

نظر له الرجل بتوجس ثم قال :

- هات بطاقتك.

أعطاه رحيم رقمه القومي، فنظر الوكيل عليها فوجده محامٍ، فقال بتحد :

- مش عيب لما تكون محامي ودارس قانون وتقول الكلام ده .

نظر رحيم في عينه وكأنه يقول له "لا أخشاك" ثم قال:

- سبنا القانون لاصحابه يا باشا.

نظر وكيل النائب العام إلى الكاتب الذي يجلس الناحية الأخرى من المكتب ويدون أقواله وقال :

- إخلاء سبيل بضمان محل إقامته .

شعر وكيل النائب العام أن وجود رحيم بداخل الحجز سيزيد حالته سوءًا أكثر مما هو عليه، فقرر أن يتخلص منه بإخراجه، ثم أمر بحجز الباقين أربعة أيام على ذمة التحقيق .

أما عهود فدخلت مع مجموعة الفتيات إلى غرفة ثانية، ليتم عرضهم على وكيل آخر. دخل معهن إبراهيم، وهو يحاول أن يجعلها تنسى التوتر قليلا. نظر لهن الوكيل نظرة متفحصة، ثم اتجه بنظره للكاميرا التي في يد عهود وقال:

- هاتي الكاميرا دي كده .

أعطتها له بهدوء، فأخرج "كارت الميموري"، وأعطاها لها مرة أخرى. استمر التحقيق معهن ساعة كاملة، بين توجيه اتهام من الوكيل إلى الماثلات أمامه، وبين دفاع إبراهيم عنهن. وأخيرًا، أمر الوكيل بإخلاء سبيلهن قائلا :

- ياريت اللي حصل ده مايتكررش تاني عشان ماحدش ضامن المرة الجاية مين هيكون مكاني هنا وهيعمل معاكو ايه .

تنفست عهود الصعداء، وأخيرًا خرجت من القسم بصحبة إبراهيم، لتجد رحيم ينتظرها، ويسأل إبراهيم عما حدث ..

- وكيل نيابة محترم من حظهم. اداهم إخلاء سبيل عشان مايبهدلش بنات الناس في الزنازين .

ضحك رحيم ثم قال :

- أو يمكن الزنازين مليانة فمافيش ليهم مكان جوه .

نظر لعهود ثم قال :

- ساكنة فين بقى عشان نوصلك .

كانت في حالة لا تسمح لها بالرد عليه أو مسايرته في جنونه، فقالت :

- شكرا يا رحيم أنا هاخد تاكسي .

أخرجت هاتفها لتطلب سيارة أجرة، فخطفه من يدها واتصل بنفسه، ليسجل رقمها، ثم طلب لها السيارة وقال :

- انا عمري ما دخلت قسم، وعمي أمين لو عرف اني اتقفشت النهارده واتعرضت على النيابة ممكن يوكلني علقة محترمة بسببك.. بس كله يهون عشان خاطر عيونك .

نظرت له ولم تعقب على أي شيء مما فعله. كانت مشغولة جدا بتفكيرها فيما كانت ستفعل لو تم احتجازها من قبل النيابة. في كل مرة تنزل فيها لتغطي المظاهرات تتوقع حدوث هذا، ولكن هذه المرة عرفت معنى الخوف. الإنسان جرئ جدا وهو لا يعرف، لكن الحقيقة مرعبة، ولولا وجود رحيم بجانبها في هذه التجربة لكانت مغشيا عليها من أول لحظة تم القبض عليها.

وقفت السيارة أمامهم، فركبت عهود وغادرت، ورحل معها بريقها ورائحتها التي سكنت روح رحيم. كان إبراهيم يتابع صديقه، وعينه التي حملت لمعان جديد، فتساءل بين الجد والمزاح :

- انت طبيت؟ !

نظر له رحيم، وتذكر أن إبراهيم هو الشخص الوحيد الذي سمح له أن يقترب من عالمه. إنه الوحيد الذي يعرف أسراره. قال له :

- طبيت ايه ياعم.. البت عجباني بس مش أكتر .

نظر له إبراهيم بتعجب، فانفجر رحيم ضاحكا وهو يقول :

- وبفكر اتجوزها !



١٢

الأسكندرية

دلف إلى الصومعة مباشرة، فثبت قماشة الرسم على السبورة التي تحتل حائطا كاملا في الغرفة، ثم أمسك فرشاته وألوانه وبدأ يرسم. راح يحرك فرشاته وهو هائم في ملامحها التي حفرت في وجدانه، حتى بدأ التخطيط الأولي يظهر على القماش.. حرك عضلاته قليلا، ثم قام من مكانه وفتح حاسوبه وبدأ تشغيل أغنية يحبها كثيرا. راقصت كلماتها أوتار قلبه، وترددت في أذنه وهو يعود ليرسم عينيها ونظرتهما التي أسرته فور رؤيتها. كلام الأغنية كان كأنه مكتوب لأجل لحظته هذه بالتحديد..

"شمسُ الهوى في النفوسِ لاحتْ.. فأشرقتْ عندها القلوبُ. الحبُّ أشهى إليّ مما.. يقوله العارفُ اللبيبُ. يا حبَّ مولاي لا تولِّ.. عني فالعيشُ لا يطيب. لا أنس يصفو للقلبِ إلا.. إذا تجلَّى له الحبيبُ"

لم يشعر بالوقت وهو يرسم عينيها وما رآه فيها من براءتها ووحدتها.. مرحها.. وخوفها.. جمالها وفتنتها. رسمها كما أحسها وأرادها لتكون فاتحة حياته كل يوم .

ابتسم للصورة التي لم تكتمل بعد.. كيف لهذا الشعور أن يقتحم حياته في لحظة عابرة، لم يعد لها العدة من قبل؟ أمسك بهاتفه وظل ينظر إلى رقمها، يريد أن يتصل بها ليطمئن عليها.. لكنه فضَّل أن ينتظر للغد، ويتركها ترتاح من إرهاق أعصابها في هذه التجربة الثقيلة على الرجال. ما حدث في هذه الساعات القليلة كان فوق احتمالها بالتأكيد، مهما بدت قوية أو متمردة .

رن هاتفه، ليجد سلمى هي من تتصل، فقرر ألا يجيب. لا يريد أن يخرج من هذه الحالة، ولا يريد أن يفكر في وضع علاقته بسلمى قبل وبعد ذلك الحدث، الذي غيّر ترتيب دقات قلبه. لكنها كررت الاتصال مرارا إلى أن أجاب. كانت قلقة للغاية، فهي تعرف أنه كان بالقرب من مكان المظاهرات التي انتشرت أخبارها على الفيسبوك، ثم اختفى تماما ولا يرد على الهاتف.

- انت كويس .

حاول أن يرد عليها بثبات ليطمئنها، فشعرت بارتباك صوته، ورعشة نبرته التي يصعب عليه هو نفسه الشعور بها. سألته مرة أخرى عما حدث، فحكى لها أنه كان قريبا أكثر من اللازم، فأخذوه مع التظاهرين. بكت.. كانت خائفة على نفسها وروحها التي تسكن بعيدا عنها، وهو الذي أقرب إليها من روحها .

في هذه اللحظة كانت تطوف أمام منزله بعد أن فقدت صبرها فنزلت تبحث عنه، لا تلوي على شيء. وعندما سمعت منه خبر احتجازه، لم تستطع الانتظار للغد. وهرعت تصعد إليه .

كان غير قادر على الكلام عامة، ومعها خاصة، بعد أن ظهرت في حياته هذه القصة الجديدة، التي خطفته بطلتها، وإن كان لا يعلم عنها أي شيء. صعدت السلالم تلهث من فرط الانفعال والخوف، وجلس في انتظارها، بهدوء مصطنع محاولا إخفاء تضارب مشاعره، بعد أن فشل في إقناعها بتأجيل مجيئها للغد.

وقف فور سماع صوت المفتاح يعبر حدود المزلاج، وأسرعت هي إليه تلقي بنفسها بين ذراعيه. ربت عليها، ورجع خطوه للوراء ليتحدث إليها، يحاول تهدئتها، فقالت بصوت متهدج من البكاء :

- ايه اللي حصل احكيلي.. ازاي أصلا.. وانت من امتى ليك في الكلام ده؟

جلسا على كرسيين متقابلين، وأعاد عليها الحكاية، متغافلا عن السبب الرئيسي لكل ما حدث. وضعت يدها فوق يديه لتطمئنه وتطمئن به، فسحب يده وربت على يدها لتهدأ، وقال :

- ماتخافيش عليا.. انا زي الفل اهو .

بكت للمرة المائة وقالت :

- مااخافش عليك !!.. اومال أخاف على مين؟ انت مش عارف انت بالنسبالي ايه .

سكت، وساد الصمت بينهما. لا يعرف بماذا يجيب، أو بماذا يرد على كل هذا الحب الذي لا يقدر بثمن. ضميره يطلب منه أن يبادلها الشعور، ويرد لها ولو جزء صغير مما حبها له، ويسعدها. كيف

السبيل إلى وصاله، وهي فعلت كل ما يمكنها أن تفعل لتحصل على قلبه وتجذبه إليها؟ نظر في ساعته، فوجد الوقت تأخر جدا، فطلب منها الرحيل حتى لا تحدث لها مشكلة بسببه، واعتذر لها أنه لا يستطيع توصيلها، فهو مستهلك القوى تماما. كانت تريد أن تبقى معه الليل بأكمله، تتأمله وتضعه بين طيات قلبها، لكن ليس كل ما نرجو يدنو. أومأت برأسها موافقة أنه على صواب، وقامت لتنصرف مودعة له بابتسامة. حاولت أن تبدو مطمئنة، لكنها في الحقيقة شعرت بشيء غريب هذه المرة. فضلت إقناع نفسها أن ما حدث له اليوم كفيل بتوتره واضطرابه، وهو السبب في هذا الإحساس الذي يطعن قلبها. قبل أن يغلق الباب وراءها، التفتت إليه واحتضنته، ثم أخذت كفه بين يديها، ورفعته إلى شفتيها لتترك قبلة صغيرة فيه، ثم التفتت إلى السلم ورحلت، متجنبة أن تنظر في عينيه، فوقف يتابعها لا يدري ماذا يفعل.

دخل إلى حجرته ومنها إلى الشرفة، فتابعها إلى أن ركبت سيارة أجرة، وتراجع للوراء كي لا تراه حين رفعت وجهها إلى شرفته.. تنهد في حيرة، وأرسل عينه إلى البحر يسأله عما يجب أن يفعل. أغمض عينيه وركز سمعه مع صوت أمواج البحر الخافت في هذه الليلة الشتوية الصافية، وهو يتمنى أن يسمع بين هديرها كلمة ترشده إلى ما يجب عليه فعله. هل يهرب من كل شيء أم يقترب؟ هل يظل محتفظا بجنونه، ويفعل كل ما يريد بدون حساب للآخرين، ويقنع نفسه أن واحدة مثل سلمى هي من اختارت لنفسها هذا الوضع، وقد كان صريحا معها منذ البداية، ويبرئ نفسه من المسئولية

ويريح عقله؟ إن البديل لذلك أن يجلس مع نفسه ويحاسبها بالورقة والقلم، وسيكون الحساب عسيرًا، يفسد عليه حياته بكاملها.

دخل إلى حجرته، فأحضر "سكتش" رسم صغير، وخرج مرة ثانية إلى الشرفة. عدل وضع الكرسي بحيث يستطيع أن ينقل نظره بين البحر وبين صورتها الكبيرة التي في الداخل، وبدأ يرسمها من جديد. أحس بشيء من الضيق يشوب متعته، فليس من السهل عليه أن يتقبل أسرها لقلبه من قبل أن يعرف أي شيء عنها .

أمسك هاتفه، وتردد للحظة، ثم أرسل لها رسالة يسألها عن أحوالها. لم يتلق ردا، ففكر أنها نامت بعد كل ما حدث لها في هذا اليوم الغريب. أحس بلسعة برد، لم يحدد هل من ليل الشتاء أم من افتقادها، فقام من مكانه، ودخل إلى حجرته موصدا باب الشرفة، ثم ترك هاتفه وألقى بجسده على السرير محاولا النوم.

وقبل أن يستسلم للنعاس، رن هاتفه، فانتفض مسرعا إليه، لعلها قرأت رسالته. لكنه وجدها سلمى، فقلب شفتيه محبطا ولم يرد. عاودت الاتصال، فزفر في ملل ورد عليها:

-وصلتي؟

-اه الحمد لله.. انت عامل ايه دلوقتي .

كان يريد أن ينهي المكالمة بسرعة، فلم يعد يرى مبررا لبقائه في حياتها، أو بقاء مكانته هذه في قلبها. أخذ نفسا طويلا وقال :

- الحمد لله أحسن كتير .

نبرته الجافة زكت شعورها بتغير جذري فيه، فسألته :

- انت فيك حاجة.. متغير وأنا حاسة بيك يا رحيم .

لم ينكر، ولكنه حاول أن يغير الموضوع، فضحك وقال :

- انتي عايزة أي حاجة تقلقي بسببها.. يابنتي انا مريت بيوم صعب قوي ومحتاج أنام.

أحرجها، فقد بدت أمام نفسها كأنها لم تدرك تعبه مما مر به ولم تفكر إلا في نفسها. أنهيا المكالمة بقلبين غير مرتاحين، وحاول كلاهما الاستسلام للنوم بعد اليوم المشحون بالإرهاق والقلق.



١٣

الأسكندرية

كان النوم هو السبيل الوحيد لعهود، لتتخطى ما حدث. كلما استيقظت حاولت النوم ثانية، حتى لم عقلها يطيعها ويغفل، فأفاقت ولكنها لم تغادر سريرها. ظلت تبحلق في السقف فوقها، وتتجسد صورة أمها وابتسامتها الحنون وحضنها الدافئ. استرجعت أحاديثًا كثيرة لطالما دارت بينهما، وكلامًا كثيرًا كانت أمها تهمس لها به، لكي تقوِّي روحها في مواجهة الحياة، وتشرح لها ما غمض عليها في علاقة والديها معا، وهي تحاول - لكن لا تفلح - أن تبرئ أباها أمامها وتحفظ له احترام ابنته. غمرتها ذكريات أيام مضت، ومضى معها الحب والحنان وأمان حضن الأم .

عهود حفظت عن أمها حكاية تأخرها في القدوم إلى الدنيا خمس سنوات بعد زواج والديها. أحيانا تفكر أنهما ظلماها بإلحاحهما على الرب بجعلها تأتي لهذه الحياة وتعيش مخاوفها. خمس سنوات كادت فيها مارية ــ والدتها ــ أن تلقي بنفسها أمام سيارات الأجرة التي تقلها يوميا للعمل، أو من أعلى سطح المنزل، أو حتى مُنتحرة بقطع شرايينها، رغم أن زوجها كان دوما حريصا على تخفيف هذا

الوجع والألم عنها، ودوما حاول أن يقنعها أن إرادة الرب لم تأذن بعد، وانه سوف يعطيهما الخير في يوم من الأيام، لأنه رحيم برعيته. حكت مارية الأعاجيب عن زوجها كيف حاول كثيرا أن يعوضها عن هذا الحرمان ويداعبها كابنته الصغيرة، محدثا لها بأنها تكفيه عن الدنيا. ولكن حنانه لم يحمها من نظرات الأقارب والأصدقاء ما بين مشفق وبين خائف على أبنائه أن تحسدهم، ويرونها كأنها بيت خاوٍ لا سبيل للحياة فيه، حتى أتت عهود إلى الدنيا فلم تعد تخشى الناس ونظراتهم وأفكارهم، ولكن في المقابل انهارت قصة حبها التي حسدها عليها الجميع .

كانت طبيعة عمل زوجها تجعله يغيب عن المنزل أحيانا بالأيام، في الحالات الطارئة والمأموريات. أحيانا تبلغ بها الغيرة من عمله أن تجلس على كرسيها في الشرفة تبكي على حالها وتتخيل أن زوجها متزوج في مكان آخر وينعم بطفل أو أكثر ولا يشعر بألمها.. ثم تعود لتضحك وتحمد الرب أن دينهما لا يسمح له بأن يفعل ذلك. تفكر أنها تظلمه في هذا، فهو يحترق من داخله لحرمانه من احتضان طفله أو طفلته وسماع كلمة "بابا"

تتقلب عهود في فراشها، فينزاح الغطاء عنها، فترتعش وتجذبه عليه وهي تعتدل جالسة، تتذكر حكايات أمها عن فرحتها يوم خطبها هذا الضابط جارها، ولم يقلل منها لكونها حاصلة على دبلوم معلمين وتعمل في مدرسة حكومية ابتدائية. كانت تؤكد دائما على حبه الشديد لها، لدرجة أنه كان في أول زواجهما يحاول أن يمتنع عن

التدخين في البيت، لأنها لا تحب رائحتها، ودوما يتناول النعناع قبل العودة للمنزل. كانت تؤكد لابنتها أن أباها كان يحترمها ويعشقها ويريد أن يهبها كل ما تريد.. يريد أن يهبها الحياة.. يريد أن يغرس بداخلها نبتته التي تنتظرها على أحر من الجمر..

تعمدت مارية ألَّا تحكي لعهود أن أباها كان دوما يطلب من معارفه القادمين من الخارج أن يحضروا لهما الأدوية أو حتى تركيبات العطارة، التي تنشط الخصوبة وتساعد على الإنجاب، وكل منها له طقوسة وطريقة استخدامه، فتفهم كيف أنه متلهف على ولي العهد، ولكن دون إفصاح. مرت سنوات خمس عليهما، وهما يحاولان مع كل جماع بينهما أن يغرسا تلك النبتة المستعصية، حتى تحول اللقاء الحميمي بينهما لمحاولة إنجاب ليس إلا. كانت ذكية، فأخفت ذلك الشعور عن زوجها، وكان ذكيا فأخفى هذا الشعور عنها، وعاشا لا يتواجهان بالحقيقة، ويمثل كل منهما دوره أمام الآخر بإتقان.

استغربت عهود كل هذه الذكريات التي تنفي تماما جمود قلب والدها، الذي لا تعي غيره. تساءلت في نفسها لماذا تتذكر اليوم تحديدا كل ذلك! فكرت أن تجربتها مع المظاهرات وفي قسم الشرطة تماثل ما قالته لها أمها عن شعورها يوم عرفت وتأكدت أنها حملت في جنينها الأول. تذكرت عيني مارية تدمعان وهي تخبرها كم هو شعور ممتع أن تشعر بقيمة نفسك بعد هوانها عليك. مسكينة مارية.. يومها لم تخبر أحدًا قط، فهي التي صارت الآن خائفة من عيونهم تريد أن

تسلم من الحسد، بعد أن كانوا هم من يخافون أن تحسد عيالهم. مر يومان عليها وقطرات الفرح تسقط من عينيها باستمرار، وهي تلومه بينها وبين نفسها على غيابه عنها في هذا الموقف، حتى طغى حضوره حين عاد على وحشة البيت والقلب، واستقبلته بقبلات وأحضان وشوق عروس تزف لزوجها .

احتكرت الخبر لنفسها في البداية، كأنها تعاقبه على عدم مشاركته لها انفعال اليومين القادمين. حممته وعطرته كصغيرها، وهو كان مستسلم ليديها تنزعان عنه الإرهاق. جهزت الطعام وظلت تضعه في فمه. وأخيرًا، جلسا معا أمام التلفاز، فظلت صامتة فترة، كلما أرادت أن تخبره شعرت بالخجل، حتى حانت الفرصة حين طلب منها تحريك "إريال" التليفزيون قليلا لتضبط الصورة، فقامت واتجهت نحو التلفاز ببطء، ثم التفتت إليه ووقفت بينه وبين الشاشة وقالت له بابتسامة:

-المفروض انت اللي تقوم على فكرة.. أنا المفروض أرتاح خالص.. أنا حامل يا وحيد.

ولأجل حملها، رجا وحيد مديره في العمل أن يعفيه من المأموريات وكل مبيت خارج بيته. كان مديره يعرف مسألة تأخره في الإنجاب، فتلطف به وساعده في ذلك، حتى مرت شهور الحمل يملؤها الحذر والقلق، وذهب بها إلى المستشفى لتضع جنينها في الثالثة فجرا، ووقف ينتظر في الخارج أن تخرج الممرضة لتبشره:

"مبروك يا بيه ولد زي القمر"

كان يتمناه ذكرا، لكنه حمد الرب وشكره على هذه النعمة التي كاد يفقد الأمل في حصوله عليها، ممنيا نفسه أن من أتت له بالبنت ستأتيه بالولد قريبا .

قامت عهود من فراشها تزفر في ضيق وهي تلعن تلك الخيالات التي لم تحدث إلا في رأس أمها فقط، وما هي ألا حواديت ظلت ترقق قلب ابنتها على أبيها بها. رن الهاتف، فلم تلتفت إليه حتى صمت، ثم أغلقته، وقامت تبحث عن مهرب من عقلها وأفكاره وذكرياته، فقررت أن تنزل للإفطار في أي قهوة على البحر، تاركة هاتفها وكاميراتها وكل ما يعلقها بالعالم.

***

على صوت رنين الهاتف، استيقظ رحيم بعين غافلة.. نظر إلى الشاشة، ليجد اسم سلمى، فترك الهاتف في مكانه، وأخذ يتثاءب وهو ينهض من موضعه ليذهب إلى الحمام. ترك نفسه تحت ماء الدش الدافئ، عسى أن يفيق ويغسل الإرهاق والقلق، ثم خرج في حال أفضل كثيرا، فالتقط هاتفه متجها إلى الشرفة. اتصل بها.. عهود بالطبع، وراح ينصت إلى صوت رنين الاتصال في أذنه، حتى دبت الروح في الهاتف حين جاء صوتها من الجهة المقابلة بهدوء :

- آلو ..

- صباح الخير

قالها رحيم بابتسامة مرسومة على وجهه، كأنه يراها وتراه. تمنى لو أنه يرى ثغرها وملامحها الآن تملؤهما ابتسامة مشرقة. سألها عن أحوالها، ففكرت لثوان تسأل نفسها هل هذا منطقي أم لأ، هل ترد على سؤاله أم تسأله لماذا يتصل وماذا يريد.. قالت، بعد أن قررت الرد:

-تعبانة ومحتاجة انام عشر سنين وانسى اليوم البشع ده وكل اللي فيه

لم يفهم إن كانت تقصده ضمن "كل اللي فيه".. لكنها لم تكن لترد عليه لو أنها تقصد ذلك. قطع تفكيره صوتها وهي تتابع:

-بقالي كتير بنزل أغطي مظاهرات، وكنت مستنية يوم زي ده عشان أشوف هقدر أواجه ولا لأ.. ماكنتش متخيلة اني هتهز قوي كده

أزاحت شعرها الأسود المنسدل وراء كتفها، ثم تنهدت وقالت:

- انت عايز ايه يا رحيم؟

أجاب في مرح:

- عايز اتجوزك.

ضحكت لجنونه.. تعجبت أو أعجبت بعدم وقوفه عند حالة الخوف والتوتر التي عاشاها أمس. سألها:

-بتضحكي على ايه؟

- عليك .

حتى وان كانت صادقة وبالفعل تضحك عليه، فهذا مبدئيا يرضيه، فعلى الأقل هي تتقبل التضاحك معه، ولا ترفضه أو تخافه. وقبل أن يحاول أن يتكلم، سألته مرة أخرى بنبره جادة:

- عايز ايه يا رحيم؟

تنهد ورد بهدوء :

- عايز نخرج النهارده نقعد في أي حتة سوا ..

فكرت قليلا، ثم قررت أن تقابله. محادثة الهاتف لن تفهم منها شيئا، وسيظل يناورها، فمن الأفضل أن يتحدثا وجها لوجه، لتعرف ماذا يريد. اعترفت لنفسها أنها بالفعل تحتاج للتواجد مع شخص شاركها تجربة الأمس، فأي شخص بخلاف شركاء هذا الموقف لن تستطيع أن تتكلم معه بحرية وستتوقع منه المعارضة أو التأنيب ولن تحتملهما الآن. اتفقا على الميعاد المناسب والمكان الذي سيجمعهما، وقبل أن يغلق الهاتف لينتهي من عمله قبل لقائهما، شاكسها قائلا :

- اسمك حلو قوي يا عهود .

قالت في عناد:

- عارفة

فتابع مستمتعا :

-مش اسمك بس الصراحة.. أنتِ حلوة جدا .

ابتسمت وسكتت، فآثر أن ينهي المكالمة على وعد لقائهما، قبل أن تغير رأيها وتخاف من جُرأته.

بعد أن طقطق أصابع يديه وعضلات رقبته، جلس في صومعته ليبدأ عمله. أحس بأن هناك شيئا يضايق أنفاسه لا يدري ما هو، فخرج للمطبخ ليعد كوبا من الشاي ليعدل مزاجه. تذكر رائحة سلمى التي مرت هنا ليلة أمس، لكنه لام نفسه أن يربط ضيقه بها لهذه الدرجة، فهي إنسانة طيبة ولم ير منها إلا حبها ووقوفها بجانبه. نفض الأفكار التي هاجمت رأسه، فالوقت وقت العمل، وعاد إلى صومعته ففتح حاسوبه ووضع سماعته في أذنه، وبدأ رحلته في عالمه الخاص.

مر الوقت لم يشعر به، غارقا في أوراقه وأقلامه، يرسم ما يحتاج ثم يقوم بإدخاله على الجهاز لتعديله واستخدامه، وبعين ثاقبة يبحث عن شيء ما على الشبكة العنكبوتية، يساعده على أن يصمم غلافا مميزًا لهذا العمل الذي عرف ملخصه منذ أيام. لكنه بعد أن انتهى من تفاصيل الغلاف، لم يقتنع به، ومسح ملفه بأكمله وقطع الورق الذي استخدمه في رسم النموذج الأولي له. رغم ساعات العمل الطويلة، يظل يحتاج أن يكون مقتنعا بأنه حقق شيئا يليق باسمه في مجال التصميم. أغلق الجهاز غاضبا، بعد أن فشل في العثور على شيء يرضيه، ثم خرج إلى الشرفة، ينتظر موعده مع عهود.



١٤

قبيلة الرحايمة - ٢٠٠٥

من حين لآخر، تتهامس الرمال بحكاية رحيم الابن، الذي هرب مع عمه إلى الحضر لسبب لم يفهمه أحد. يحكي الكبار عن أمين، الذراع اليمين لكبير الرحايمة، وذكريات سنين طويلة كان فيها أمينا بأفعاله ومشاعره وليس بمجرد الاسم، ويشهدون بحب الكبير لأخيه وابنه الذي كان سيرث الحكم من بعده، وجميعهم يعرفون نبوغ رحيم الابن، الذي تنبأ له الجميع بحكم أكثر من جيد بعد أبيه .

ولكن بعد هذه الحادثة انهار كل شيء، وانهارت كل الأحلام. بعد اختفاء أمين وابن أخيه بفترة قصيرة، عقد الكبير اجتماعا لأبناء القبيلة والوافدين، وخطب فيهم بصوت جهور ثابت، وإن ظهر الحزن في نبرته :

- قانون القبيلة هيسري على الكل.. أمين ورحيم ماتوا زي غيرهم من اللي حاولوا يفوتونا ويمشوا.

الرحايمة.. قبيلة ترتقي لوصف دولة مُستقلة.. قوانينها صارمة؛ لكنها تحميهم وتجعل منهم بنيانًا واحدًا يقف في وجه أي خطر يهدد حياتهم وبقاءهم. حتى مع مشكلة كبيرة يمر بها الكبير، الذي لم

يرزق بابن بعد رحيم، ولا يعرفون من سيمكنه أن يرث الحكم من بعده، يعلنهم الكبير أن :

"قانون القبيلة هيسري على الكل".!

رحيم الكبير يؤمن أن أجل الله قادم لا محالة، فكيف سيحل هذه المشكلة. لقد فكر مرارا وتكرارا في هذه الأزمة، ولكن دون جدوى، فترك الأمر كُله لله، واهتم بشئون قبيلته، يرسي مبادئ الحكم فيها والمساواة في تطبيق قوانينه على أهلها، بما فيهم هو وأخيه وابنه، بقناعة تامة أن هذا هو السبيل الوحيد كي لا تنهار أمام أي عاصفة قادمة، حتى وإن كانت موته. لم تكن صرامته دليل قسوة؛ بل شهد له الجميع بالطيبة رغم تنفيذه الكامل للقوانين. كان أبًا لهم جميعا، حانيا عليهم. يحل لهم مشاكلهم، ويشهد على زيجاتهم، ويكون السند لمن يحتاج عونا، فعمل الجميع تحت رايته في الرعي والزراعة والعطارة عن رضا، وامتلأت خزائنهم بالخيرات. ظل رحيم يبيع الزائد عن حاجة القبيلة، ويشتري بالمقابل سلاحًا وذخيرة يكون لهم عونا ضد أي غاصب يفكر في نهبهم أو حتى استضعافهم في يوم من الأيام .

مَيّز الكبير المزارعين والعطارين عن غيرهم، واعتبرهم خط الأمان الأول قبل السلاح، فهم من يمنعون الجوع، ويملؤون الخزائن بالنقود، التي تعتمد عليها كل المهن الأخرى. اهتم على الأخص بزراعة الأعشاب التي يبيعها إلى العطارين الذين اشتهرت عطارتهم في جميع أرجاء البلد، واستطاع من خلالهم أن يبيع عطارته داخل مصر وخارجها، ويأتيه زبائنها من كل حدب وصوب، واشتهرت

الرحايمة بعطارتها الثمينة والنادرة. كان حكيما في إعطاء الأولوية لهذه الأصناف، فزراعتها تدر على قبيلته أضعاف المحاصيل الغذائية التي تزرع في كل الحقول.

ورغم غضبه وانكسار نفسه مما فعل أخوه وابنه، إلا أن الكبير تعلم الدرس، وأحضر من يعلمون أبناء القبيلة جميع العلوم وشجع المعلمين على الحياة بالواحة، بسخاء الأجر ومنح الإجازات وقرب المكان عن أن يسافروا ويتركوا أهاليهم شهورا طويلة .

كان يتابع التعليم بنفسه، ويحرص ألا يفسد المعلمون أفكار الصغار ويغيروا انتماءهم للرحايمة. كان يدخل عليهم الدرس، فيخاطب التلاميذ المبهورين بهيبته ويحدثهم في حماس :

-بعد عشر سنين من دلوقتي هتكونوا انتم رجالة القبيلة.. هتكونوا انتم أساسها وسندها. كلكم سواسية ماحدش هيتميز فيكم إلا اللي هيبقى ناصح وواعي لكل حاجة حواليه.. وزي ما الأساتذة بينوروكم كده.. أساس أي نجاح هو التعليم.. يعني توقعوا أن اللي هيكون مميز في السنين دي في التعليم هو اللي هيكون من أعيان القبيلة بعد كام سنة .

بدأ في تطوير واحته، كي لا يحتقرها من يخرج منها من الشباب لأي ظرف حين يرى المدن البعيدة. وكان عادلا في تطويرها، فمثلا عندما أدخل ماكينات توليد الكهرباء، لم يأتِ بواحدة له فقط، أو لأبناء عمومته، بل أنفق الكثير من خزائن القبيلة، لتظهر الأنوار في جميع أرجاء القبيلة. بعد فترة، بدأت البنايات تحل محل الخيام، ومد

مواسير الماء العذب من الآبار التي رزق الله الواحة بها إلى البيوت، ثم استعان بشركات خاصة لإدخال وسائل اتصالات مصرية وليبية.. وأهم ما في كل ذلك، كان أن الكل في هذه الخدمات سواء .

كانت ملامحه جادة فيما يقول، لم يكن مجرد تشجيع لهم على التعلم بسرعة، بل كان يعني كل كلمة يقولها. أخذ نفسا عميقا وتابع حديثه :

–لو كان أمين اخويا صبر كان شاف التغيير ده بعينه.. بس هو استعجل وهرب وأنا مااقدرش أمشّي قوانين القبيلة على الكل غير لما أمشيها على نفسي الأول.. الله يرحمه كان هيفرح قوي لو شافكم دلوقتي بتتعلموا على ايد احسن مدرسين في البلد .

قام أحد الصغار وسأل بعفوية :

–هو مات ازاي وليه؟

لم يكن من طباع الكبير أن يهرب من أي سؤال، وكان عنده رد لأي سائل، فقال :

– مات عشان خالف القانون.. مات لما أجله جه يا ولدي .

طأطأ الصغير رأسه، فسأل آخر :

– طب ورحيم؟

قال الكبير وهو يغادر :

– الله يرحمه.. ادعوله بالرحمة .

غادر الكبير المكان وقلبه ينزف ألم فراق شقيقه وابنه، وصعد إلى حيث خيمته التي ورثها عن أجداده في أعلى مكان في الواحة. جلس بجانب زوجته التي كبرت عمرا على عمرها وجعا على فراق ابنها. الكبير لا يعرف أن لها يدًا فيما حدث من الهاربين، وهي لا تعلم إن كانت قد فعلت الصواب بمساعدة أمين على ذلك أم لا. لقد أحبت الكبير بصدق، وكانت أسعد فتيات القبيلة عندما اختارها؛ لكنها الآن لم تعد تعلم حقيقة مشاعرها ناحيته.. هل مازالت تحبه لكل سنين العشرة الطيبة، أم تبغضه لأنه كان السبب في فقدانها لابنها بتعنته في الرأي، أم تخافه وتشعر أنها خانت ثقته بمساعدة ابنها على الهروب وهو يأمنها حتى الآن ولا يدري بما فعلت؟

اقترب منها كطفل رضيع، لثم جبينها ويديها، وترك رأسه ترتاح على صدرها الذي كان دوما ملجأه كلما اشتد الحمل على عاتقه. ترك نفسه بين ذراعيها، لينام ويرمي كل شيء وراء ظهره، ليحلها من يدبر الأمر والناس نيام.. ليحلها من يحلها دوما بقدرته. نام في أحضانها وكأنها نهاية العالم، ثم نظر لمقلتيها مرة أخرى، وغاص في سبات عميق .

***

١٥

القاهرة

قامت هايدي من مكانها، وقد أنهت مكالمتها مع سكرتيرة الشركة، واطمأن قلبها بعض الشيء، فدخلت المطبخ لتعد العشاء بابتسامة مشرقة ووجه بشوش، فسألها والدها :

- مالك يا بت.. فيكي ايه.. مبسوطة على غير العادة يعني؟

ضحكت، ثم قصت له ما حدث، فترقرقت عيناه دمعا، ودعا كثيرا بقلب منفطر على أحلام ابنه الوحيد، الذي ضحى بفرصة السفر لأجلهما. تركت قبلة على رأس أبيها، قبل أن تتجه لتكمل ما بدأته، فقد كانت تريد أن تنتهي من كل شيء وراءها قبل عودة أخيها .

وحين وصل عاصم، قبّل يد والده، الذي ربت على كتفه بحنو أكثر من المعتاد، فدخل إلى غرفة شقيقته مباشرة، فلم يجدها فذهب إلى المطبخ، وسألها :

- ايه اللي حصل بالظبط احكيلي .

نظرت له بملامح جامدة وحاجب أعلى من الآخر :

- فين الحاجة الحلوة بتاعتي؟

ضحك لطفولتها، التي لا تميز بين الجد والمزاح، ثم قال :

-لو دخلتي اوضتك هتعرفي اني مش ناسيكي .

اقتربت منه وقالت :

-أنا عارفة انك عمرك ما نسيتنا.. عشان كده ربنا مش ناسيك .

نظر لها بتوجس، فتابعت :

-النهارده يا سيدي لقيت إعلان في شركة مقاولات وديكور طالبين مهندسين.. خدت الرقم واتصلت بيهم، كانوا محتاجين مهندسين عشان داخلين على شغل مواقع كتير الفترة الجاية.. وحددت معاهم ميعاد انترفيو بكرة .

لم يستطع أن يكذبها، كان صوتها صادقا في كل شيء. ضمها لصدره وقبل جبينها.. شكرها على وجودها بجانبه فلكزته في كتفه قائلة :

- جبتلي ايه برضه؟

ضحك بعين دامعة وقال :

- ادخلي اوضتك وانتي تعرفي .

تركت ما في يدها مسرعة، واتجهت لغرفتها، لتجد علبة "النوتيلا" في انتظارها على سريرها. التقطتها، وخرجت مسرعة، لتجده قد ألقى بجسده على السرير ناظرًا لسقف الغرفة، الذي عايش معه جميع

أحلامه من صغره حتى الآن. شكر الله كثيرا على خيط الأمل الذي لم ينقطع في حياته، ويمكنه من الاستمرار في الصبر في انتظار غد أفضل. رآها، فاعتدل في جلسته وأشار لها بالاقتراب. على مقربه منه جلست تسأله عما ينتوي فقال :

- هنام شوية، وانزل بالليل أنزل أجيب طقم عليه القيمة، واراجع شوية حاجات علشان ابقى مركز في المقابلة.

نظرت له بعين متسعة، ثم قالت :

- طقم ايه ياعم هو انت رايح تشتغل في الشركة السعودية!

ضحك، فتابعت :

- بالليل ننزل نشتري بدلة شيك كده عشان انا واثقة أن المقابلة دي هتغير حياتك تمامًا .

قامت من مكانها واتجهت ناحية الباب لتتركه يستريح ثم وقفت مرة واحدة ونظرت له :

- وعلى حسابي يا سيدي .

ضحك مرة أخرى، لأنه يعلم أنها سوف تعطيه نقودا مما يدخرها معها. شرد عما حوله، لا يدري ماذا يخبئ له الغد. كل ما يعرفه أنه صبر كثيرا، وتحمل ما لم يتمكن رفقاؤه من تحمله. لم ييأس، ولم يكفر

بفرج الله القريب، يقنع نفسه أن كل شيء يحدث لسبب ما، وسيأتي الوقت الذي تأتي الرياح بما تشتهي نفسه.

نام قلقا خائفا من هذا الموعد، يعرف أنه أصبح أكبر بكثير من هذا التوتر الذي يصيبه في هذه المواقف، وأنه مر بما يجعله أقوى؛ ولكنه خائف هذه المرة، فقد هزه سفر مرسي كثيرًا. حاول أن يكون واثقا في نفسه كما وثقت شقيقته فيه، وترك جفونه تحتضن بعضها البعض، ليذهب في سبات عميق.

أصرت هايدي أن تنزل معه، وهي تضع يدها في يده كحبيبته. ذهبا لمحل ملابس يعرفانه، أسعاره عادة في متناولهما، ليشتريا له بذلة تليق بالموعد المنتظر.. تليق بالمهندس عاصم، كما تقول شقيقته دائما. فور دخولهما المكان، هرولت هايدي تجاه واحدة، فخطفتها من على الشماعة، وقالت لأخيها:

-هي دي.. خلاص انا قررت.

ضحك وهو يقترب منها لينظر إلى ورقة السعر أولا، قبل أن يأخذها ليقيسها. دخل غرفة تبديل الملابس، ووقف أمام المرآة يبدل ملابسه.. لم يعرف نفسه.. هل هذا هو نفس الشخص الذي يعمل في محل المثلجات؟ هل هذا هو نفس الشخص الذي عاش طويلا يحرم نفسه، مقابل رؤية والده وشقيقته بخير؟ لولا أنه في محل الملابس لبكى من فرط الإرهاق النفسي الذي حط على روحه فجأة.

انتبه أنه تأخر بالغرفة عندما سمع صوت شقيقته تناديه :

- هو القمر مش هيخرج يورينا نفسه ولا ايه .

مرر أصابعه بين خصلات شعره يسويها، وخرج إليها عاصم جديد، وسيم وأنيق في ملابسه الجديدة.. "باش مهندس" . نظرت له شقيقته، وهربت دمعة من بين جفونها لحلاوة ما ترى. كان شقيقها في أزهى صورة. هذه هي الهيئة التي يستحقها. شعرت بمعاناته جيدا في هذه اللحظة. احتضنته وقالت :

- البدلة دي متفصلة بالمللي عليك .

ابتسم لها ممتنا لمساندتها.. كان كل منهما راعيا ومسئولا عن الآخر.. كل منهما يدعم الآخر وقت حاجته.. كانا أخوين كما ينبغي لأخوين أن يكونا .

خرجا من المحل يحملان البذلة، وتمشيا في طريق العودة للبيت. شم عاصم رائحة شاروما تقتحم محيطهما، فنظر لهايدي وقال :

- تيجي ناكل شاورما؟

نظرت لشقيقها وفتحت عينيها في مرح..

- نوتيلا وشاورما في يوم واحد.. أحمدك يارب .

* * *

١٦

الشرقية - ديسمبر ٢٠١٠

جاءته إخبارية بوجود الهدف المنشود في منزل والدته، بعد غياب عن أعينهم لشهور، فجمع القوة، وركبوا سيارة الشرطة هو ومراد وأميني شرطة وعدد من العساكر المجندين، واتجهوا إلى الهدف .

مراد منذ فترة صار لا يفارق رئيسه في العمل وزميل دراسته في مثل تلك المهمات التي تحمل احتمالات مواجهة عنيفة. هذا ليس حبا له، فالحب الذي كان يسكن بداخل مراد لصديقه انتهى منذ كره القبو وما يفعله وحيد فيه. إنه يتحول لمخلوق غير إنساني بمجرد أن ينزل تلك السلالم. صار مراد يصاحب وحيد في المواجهات ليحاول إضافة بعض الإنسانية على أسلوب إتمام المهمة.

بعد دقائق، كانت القوات تمشط المكان، وتغلق المداخل والمخارج. من يراهم بكل هذا الحراك المسلح المتحمس يظن أنهم قادمون للقبض على قائد إرهابي، ولن يتخيل أبدا أن هدفهم ليس إلا طالبا مجتهدا في آخر سنين كليته، التي تعبت أسرة بكاملها كي يدخلها ويصبح أفضل من أخيه الذي يسكن خلف القضبان. كان

الفتى أمل والدته وأخيه الذي سُجن ظلما وافتراء، وكان يجتهد لتحقيق هذا الأمل.

تأكد وحيد من انتشار جنوده، ثم صعد السلم بقدمين تدب الأرض دبًا، وكأنه لم يخلق عليها غيره، حتى إن مراد كان ينظر له متعجبا، يتذكر أن صديقه لم يكن هكذا منذ بضع سنوات. تساءل في نفسه كيف لم يتعظ وحيد، وهو الذي حين لم يرضَ بقضاء الله، حرمه الله من زوجته وابنته. لقد كان عقابا شديدا كفيلا بأن يرجعه إلى التواضع لربه، لكن العجيب أنه بعدها صار أسوأ بكثير من ذي قبل.

ضرب العساكر باب المنزل، غافلين عن حرماته.. دخلوا وانتشروا في المكان الذي لا يوجد به غير امرأة كبرت ملامحها عشرات السنين على عمرها الحقيقي. امرأة شقيت لتربية ولديها عمرها بأكمله، ليقتل المتجبرون فرحتها بهما، فيسجن الكبير، ويصبح الصغير مطاردًا قبل تخرجه بشهور، ولا يفهم أحد تهمته. إن ابنها سيف مسجون احتياطيا إلى الآن، ولم يدخل محكمة.. إن ذلك أسوأ من أي شيء، فهي لا تدري لحبسه مدة ولا لعذابها نهاية لو عرفتها ستبدأ عد الأيام لتصل إلى يوم الفرج.

سألها وحيد بنظرة اخترقت روحها غضبا وضيقا:

- نبيل فين يا ام سيف؟

نظرت له والدموع تملأ عينيها، وقالت بحسرة:

- نبيل ساب حضني من تمن شهور يا بيه.. زي ما أخدت مني سيف من سنين وماعرفش عنه حاجة.

دار وحيد حولها دورتين، وهو ينفخ ضيقا في سجائره، ثم أصدر أمرا للعساكر أن يفتشوا كل أرجاء المنزل. ابتسمت السيدة ابتسامة رثاء لحاله، وقالت بهدوء وهي تتجه إلى الأريكة لتجلس :

- خدوا راحتكم في التفتيش، البيت ماعادش فيه حاجة تاخدوها.

وقف وحيد أمامها وقال :

- ليه يا ام سيف.. لو مالقيناش نبيل هناخدك بداله

احمرت عين مراد من الغضب، بينما بدأ العساكر في تفتيش المنزل، قلبوا المنزل رأسا على عقب، ومازالت ابتسامة والدته الحزينة على وجهها، ووحيد ينفث سجائره في غل.

في نفس هذا الوقت، كان نبيل يصعد على ماسورة الصرف إلى السطح ليختبئ به، ولكن لسوء حظه وجد أحد أفراد الأمن يواجهه عند سور السطح، فكاد نبيل من الصدمة أن يسقط. فوجئ بالعسكري يهمس إليه بصوت خافت :

- اطلع يا نبيل من الناحية دي وعدي للعمارة التانية بسرعة.. بلاش من هنا علشان في عسكري تاني.. بسرعة، وأبوس ايدك ماتقولش اني شوفتك ابدا .

خرج جميع العساكر من الغرف والمطبخ في صوت واحد:

- مافيش حد يا فندم.

اقترب وحيد من المرأة التي هزت رأسها في أسى، فأمسك رسغها وقال:

- المرة الجاية مش هرحمك ولا هرحمه.

قالت:

- الدنيا واللي عايزها يا باشا.. لما يكون فيه مرة جاية يحلها ربنا من سابع سما.

لم يكن رد فعله مفاجئا لها وحدها، بل تفاجأ الجميع بكفه الذي صفع وجه المرأة، فنزف فمها الدم. لم يشعر مراد بنفسه إلا وهو يدفع وحيد للوراء بعيدا عنها.. نظر له وحيد بعين غير مصدقة ما جرى، وقال له بعين جامدة ونبرة حادة:

- اجمع القوة عشان نرجع القسم وحسابنا هناك يا مراد.

لم يرد مراد. انتظر حتى خرج وحيد من الباب، واقترب من السيدة وقبل رأسها ورجاها أن تسامحهم على ما جرى، فقالت وهي تمسح الدم من على فمها بمنديل:

- حسبي الله ونعم الوكيل فيكم هو اللي هيجبلي حقي.

قبل أن يغادروا بالسيارة، لمعت في رأس وحيد فكرة، فقال لأميني الشرطة..

- خدوا العساكر واطلعوا مشطوا السطح تاني بسرعة .

وقف الأمين وزميله بعد أول دور متكاسلين، فهما للتو قد مشطا السطح الذي يعلو ستة أدوار، ولم هناك أحد. أرسلا العساكر إلى الأعلى ووقفا ينتظران في ملل. وبالأعلى، كان العسكر المجندون يتهامسون:

- الواد ده حتى لو فوق مش هننزل بيه وكأننا ماشوفناهوش .

كان نبيل قد اختبأ على سطح البناية المجاورة، ووقف يراقب ما يحدث مع أمه، ورأى وحيد وهو يصفعها، فارتجف غضبا وقهرا. وحين رآهم يركبون السيارة، قرر أن يعود إليها ولا يتركها في هذه الحالة. وبينما كان يقفز لسطح بنايته، رآه وحيد، فصاح به أن يسلم نفسه، وأخذ يتتبعه من الأسفل ويطلق عليه رصاصات مسدسه .

كان نبيل مفزوعا، يتساءل ما الذي استحق به كل ذلك.. ما هو إلا شاب في مقتبل حياته يتمنى أن يبني مستقبله الذي هو جزء من مستقبل وطنه.

وصل إلى نهاية الشارع، وهبط على ماسورة الصرف، ظانًا أن وحيد قد فقد أثره، لكن ما هي أمتار قليلة، إلا وفوجئ به يطارده بسيارة الشرطة التي بدت له كوحش أسود كئيب له عينان من نار. ظل يجري، واليأس يعصر قلبه، والحزن يجعله يصرخ كالمجنون. كان قد وصل إلى منتصف الكوبري، حين رأى سيارة الشرطة تعتلي الرصيف وتحاصره، ومسدس وحيد مشهر في وجهه على بعد متر

واحد منه، فارتجف فزعا، ولم يكن منه إلا أن ألقى نفسه في النيل دون وعي.

لم يكن نبيل يعرف العوم. لقد ألقى بنفسه في النيل رعبا من وحيد. ربما ظن أن نيل بلاده أطيب من قبو وحيد، لكن خيَّب النيل ظنه وابتلعه داخل مياهه السوداء وسرق شبابه الذي كان يحمل أملًا جميلا وحبًا للحياة. العجيب، أن وحيد نزل من السيارة، وهرول ينظر من فوق سور الكوبري في غيظ إلى نبيل وهو يحاول الطفو فوق الماء ولا يستطيع. كان كأنه مغتاظ أنه لم ينل فريسته وأن قتلها لم يكن من نصيبه. أما مراد.. فكان يرقب كل ذلك في حزن عاجز، ويفكر أنه ربما يستقيل ويترك كل هذا الهراء القبيح.



١٧

الأسكندرية

فشل رحيم في العثور على فكرة للغلاف. عكر هذا الأمر مزاجه، لكنه تخطاه مؤجلا التفكير في أي شيء إلى ما بعد لقائه بعهود. نظر في ساعته.. أخيرًا اقترب موعدها ويمكنه البدء في تجهيز نفسه للقاء. ارتدى ملابسه، وبعد أن اطمأن إلى تمام هيئته في المرآة، اتصل بها يسألها أين وصلت ..

- انا نازلة اهو عشان ابقى عندك في الميعاد .

قال ضاحكا :

- ايه دا أنا كمان نازل على السلم برضه .

خرج رحيم من البناية، وقبل أن يوقف سيارة أجرة للمكان المنشود، وجدها على مقربة منه تعبر الطريق. نظر لها بتوجس وفرح في نفس الوقت، ثم أقبل عليها متسائلا:

- بتعملي ايه هنا؟

نظرت له بحدقة متسعة وقالت :

- انت اللي بتعمل ايه جنب بيتي وعرفت مكاني منين؟

ضحك رحيم وأشار بيده للبناية التي يقيم بها وقال :

- أنا ساكن هنا .

وضعت يدها على فمها مندهشة، وضحكت من غرابة الموقف، وقالت وهي تشير إلى شقتها التي لا تبعد عنه إلا بأمتار قليلة:

- أنا ساكنة هنا .

ضحكا سويا من هذه المصادفة، ثم سألها :

- نركب لـ ستانلي ولا نتمشى .

"نتمشى" قالتها عهود وهي تشير إلى أول سيارة أجرة مرت بهما، فضحك رحيم من فعلتها، وركبا سويا. بمجرد أن نزلا من التاكسي، سألته عن سبب طلبه للقاء، فقال جادًا وهو ينظر في عينيها :

- وحشتيني وكنت محتاج اشوفك .

احمرت وجنتاها خجلا. خرج كلامه من نطاق الضحك إلى المغازلة الصريحة. قالت :

- بطل بقى ياعم.. بجد عايز ايه؟

وقفا بجانب بعضهما على الكوبري، ناظرين إلى البحر دون أي كلام. كانت الكلمات التي قالها رحيم كفيلة أن تجعل عقلها يموج بالكثير من الأفكار والاعتبارات. من هذا؟ لقد اقتحم حياتها فجأة،

ولا تعرف عنه أي شيء. لقد خافت بالأمس.. خافت كثيرًا ووجوده كان طوق نجاتها من رعب المكان والزحام والمجهول الذي تسمع عنه يحدث في أقسام الشرطة. إنها لا تريد أن تبقى وحيدة مرة أخرى، ولكن هذا ليس سببا كافيا لتقبل وجوده في حياتها وتطمئن إليه. لا تعلم ماذا سيحدث بعد ذلك، ومن سيكون بجانبها لو صممت على مغادرته لحياتها. نظرت نحوه فوجدته شاردًا مع البحر هو الآخر، فسألته :

- سرحان في ايه؟

ابتسم وقال :

- أخاف اقولك تسيبيني وتمشي.

رفعت حاجبيها وقالت وهو تمثل الهدوء :

- لا ماتخافش.. مش هسيبك بس ممكن أرميك في البحر

- الحمد لله .

التفت نحوها للحظة، ثم نظر إلى البحر مرة أخرى وقال:

- عندي مشكلة في الشغل ومتضايق من ساعتها.. بس هتتحل.. أنا بس ماتعودتش أفشل في حاجة عشان كده الموضوع شاغلني.. بس كله هيبقى تمام .

ابتسمت وهي تتأمل وجهه الجاد، وقالت :

- أنا كمان بحب شغلي قوي .

نظرت للبحر مرة أخرى..

-احكيلي المشكلة يمكن أقدر أساعدك .

نظر لها وقد أشرق وجهه.. إنها أمامه حقا، ومهتمة بمشكلته، وتعرض عليه أن تساعده. بدأ يشرح لها :

- بعيدا عن إني محامي مع إيقاف التنفيذ.. أنا بشتغل جرافيك ديزاينر. على فكرة ماحدش يعرف المعلومة دي غير إبراهيم صاحبي .

نظر لها بفخر، وأكمل:

- وهذا شيء لو تعلمون عظيم

ضحكت، فتابع :

-بصمم غلاف لرواية.. ومش مقتنع بالتصميم اللي عملته، فمسحته قبل ما انزل.. وده شيء مضايقني جدا .

- طب كنت متخيل الغلاف شكله عامل ازاي وانت شغال عليه؟

حدثها عن مضمون الرواية، وشرح لها رؤيته لتصميم الغلاف، وكيف حاول فيه، ولماذا لم يقنعه في النهاية فحذفه. فكرت قليلا، ثم قالت :

- طيب ممكن تجرب حاجة مختلفة.. لما أروح هبعتلك صورة على الواتس بص عليها .

نظر لها باندهاش، فقالت :

- ياعم لما نروح.. بس ابقى شوفها وقُل لي رأيك.

هز رأسه موافقا، ثم عم الصمت. شردت هي هذه المرة تماما تتأمل البحر وتتغير معه انفعالات وجهها، ومضى هو يتأملها في سكون ولا يقاطع شرودها. التفتت فجأة، فالتقت عيناهما، ورأت في عينيه نظرة تشتهيها في صراحة ولكن دون تدني، فاحمر وجهها وقالت في ارتباك:

- مالك ياعم.. فيه ايه؟

- بشبع منك ..

تعلم من قبل أنه مجنون. بلا شك هو مجنون، وهي التي تغافلت تلك الحقيقة وأتت لمقابلته. شيء ما سلبه عقله ليصبح هكذا بالتأكيد. هل يمكن ألا يكون مجنونا من يدعو فتاة للقاء أول مرة، وفي الشتاء، فقط ليقفا هكذا على الكوبري؟! قالت :

- بطل بقى يا رحيم.. أنا عارفة انك مجنون من أول ما شوفتك بس انا مش مضطرة استحمل جنانك ده كتير .

ضايقه تعبيرها قليلا. يعلم أنه تمادى في تعبيره عما أحسه نحوها ولم يمر على تعارفهما ما يكفي لتألفه وتصدقه. قرر أن يهدأ قليلا، ويأخذ الأمر ببساطة أكثر، ويعطيها مزيدا من الوقت لتطمئن إليه .

قال :

-كنت فاكر البنات الحلوين بيحبوا الجنان.. بيكتبوا كده على الفيسبوك كتير. يمكن كدابين

لم ينتظر ردها، بل أكمل:

- وانتي بقى وافقتي ليه نتقابل؟.. كان ممكن تكملي في رخامتك معايا وترفضي .

لم تتسرع بالإجابة. إنها تريده صديقا فقط. إن الصداقة لا يقال لها "فقط"، بل هي أعظم العلاقات الإنسانية، وهي أكثر ما تحتاجه في حياتها. تحتاجه صديقا رأت منه موقفا ساندها حين ظنت أنها وحيدة ولا أحد معها. تحتاجه صديقا قريبا يشجعها على مواجهة الحياة. هي يمكن أن يستمر في طلب لقائها لو علم أنها قررت أن تصبح راهبة؟ إنها لن تراجع عن هذا القرار، بعد كل ما رأت من الرجال، ممثلين في والدها وما فعلوه بالنساء ممثلين في أمها. نظرت إليه تتمنى أن يكون عند حسن ظنها ولا يخيب أملها، وحارت كيف تخبره عن كل ذلك، فأنقذها من حيرتها رنين هاتفه. أخرجه من جيبه ليرى المتصل، فوجدها سلمى فلم يرد. نظرت له عهود وقالت :

- رد على تليفونك .

قال :

-مش وقته خالص.. خليني معاكِ .

لم تعقب.. لا تريد أن تتدخل في خصوصياته. قالت :

- انا جعانه .

- وانا كمان.

سارا سويا بمحاذاة البحر، وتكلما عن أشياء كثيرة. لم يسألها أسئلة مباشرة عن حياتها، وهي لم تسأله إطلاقا. كان سيأخذها إلى مطعم يعرفه، ففاجأته بأن أمسكت بيده وعبرت به الطريق جريا، ودخلت به في شارع جانبي، ليجد نفسه أمام عربة كبدة، تفوح رائحتها في المكان. قالت :

-هتاكل كبده هتقعد عمرك كله تحلف بيها.

نظر لها متعجبا، وضحك بصوت عالٍ من فرط المفاجأة وقال :

- اديني الطلب المخصوص بتاعي يا عم سعد على ما نشوف الآنسة تحب تاكل ايه .

نظرت لصاحب العربة وقالت وهي تكتم ضحكتها :

- خليهم اتنين يا عم.

تناولا طعامهما سويا، كصغيرين يأكلان شطائرهما بين الحصص. من فينة لأخرى ينظر لعينيها الآسرتان، ويتأمل شعرها المتطاير على كتفيها، بينما تسترق هي النظر لرفيقها وصديقها الجديد، والإنسان الوحيد الذي قررت أن يكون سندها إن احتاجت سندا. لها صديقة بالتأكيد، تشاركها أفكارها وأسرارها وأحاسيسها. سلمى لم تقصر معها أبدًا، وتجدها بجانبها طول الوقت؛ ولكن دوما تحتاج المرأة إلى

رجل يكمل رؤيتها للحياة ويدعمها برأي مختلف عن فكرها الأنثوي .

انتهيا من تناول الطعام، فخرجا إلى الشارع الرئيسي، واشتريا مشروبين غازيين، تمشيا معًا حتى أنهيا ما يشربان، ثم أشار رحيم إلى سيارة أجرة لتحملهما معا إلى نفس العنوان. وصلا في وقت قليل، فودعها قائلا :

- هشوفك بكرة .

ابتسمت ثم اردفت :

- هنشوف كده بكرة هينفع ولا لأ .

عقد حاجبيه وتابع :

- وايه اللي هيخليه مينفعش؟ !

- معرفش

كانت حقا لا تعرف، فقد تعودت ألّا تخطط للغد، وفقط تترك كل يوم يمر بسلام في انتظار الذي يليه. قالت :

- هكلمك بكرة

- هستناكي

* * *

١٨

الأسكندرية

القراءة ملاذها الوحيد عندما يغيب. تطلق لخيالها العنان وتراه بطلا لكل قصة تقرأها، وترى نفسها الشخصية التي تهرول بقلبها وراءه لتثبت له حبها. لقد غرقت فيه حُبًا، ولكنها ترى الغيوم في أفق علاقتهما، تفزع روحها. سمعت أنين والدتها، فقامت مسرعة لترى ما بها.

- مالك يا ماما حاسة بايه يا حبيبتي .

ردت والدتها وهي تحاول التماسك :

- مافيش يا حبيبتي.. انا كويسة .

ربتت على كتفها وقبلت رأسها، داعية الله أن يستجيب ويشفي والدتها، سألتها :

- اخدتي الدوا؟

-يا بنتي انا زهقت من الدوا.. الدوا ده بيتعبني اكتر.. أنا مش عايزاه تاني .

قبلت يدها، سكتت. تعرف أن أمها حين تصل لهذه الحالة من رفض العلاج لا يمكن أن تتراجع، فلا داعي لأن تتعبها أكثر بإلحاح ومجادلة لا نتيجة لهما. ظلت إلى جوارها تحدثها وتسمع منها بعض ذكرياتها القديمة التي تحب الثرثرة بها، حتى استرخت وراحت في نوم عميق، فراحت ترقيها ببعض ما تحفظ من السور القرآنية والأدعية، ثم تركتها في هدوء.

في طريقها إلى غرفتها، مرت بأختها، فأطلت عليها تنظر ماذا تفعل، فوجدتها منكبة على كتبها تذاكر وتراجع دروسها، فابتسمت، وتقدمت لتجلس بجانبها وسألتها في ود:

- بتعمل ايه يا حُب؟

ضحكت الصغيرة، وردت وهي مازالت تنظر في كتبها:

- بحارب يا حُب.

تعلم سلمى أن شقيقتها تحارب بالفعل، لنيل رغباتها ولإرضاء والدتها. إنها تحارب عفريت الثانوية العامة، الذي يرعب طلابها جميعهم مع نظام تعليم هو الأسوأ على الإطلاق. إنها تحارب وهي تعرف مقدما أن كل جهادها هذا قد يصل بها إلى اللاشيء، طالما كل أهلها من طبقة اللاشيء في عُرف الحكومة.

ربتت سلمى على كتف أختها، وقالت لها في إشفاق:

- ماتضغطيش نفسك قوي.. عيشي حياتك شوية جنب الثانوية عشان في الآخر ماتتصدميش في الواقع اللي هتشوفيه بعد

الثانوية.. اعملي اللي عليكي اه ، بس ماتنسيش نفسك فيها قوي.

تركتها لتفعل ما تشاء، وأكدت عليها وهي تغادر :

- ماشي يا حُب؟

هزت أسماء رأسها في إيجاب، ولكنها ظلت معلقة بكتبها تحل دروسها. توجهت سلمى إلى الشرفة، تصحب هاتفها معها، وتنتظر اتصال رحيم بها، لو تذكر أن يتصل. كانت حزينة، وهاجس داخلها يحدثها أنه لن يتصل وأنه لا يتذكرها. تحارب هذا الهاجس وترد عليه أنه مشغول في عمله والأغلفة التي ينتظرها الكتَّاب منه، ولا داعي للتفسيرات السلبية التي تجعلها كئيبة فيصبح حضورها في حياته ثقيلا وغير مرغوب فيه .

مر بها الوقت، حتى نظرت في ساعتها ففوجئت وتساءلت يا ترى ما الذي ينشغل به طيرها عنها؟ لماذا لم يأتِ إلى سكنه من عنان السماء، أم أنه لم يمل الطيران حتى الآن؟ أمسكت هاتفها واتصلت به. رنين الهاتف يضايقها، فهي تريد أن تسمع صوته وتستأنس به. كاد الرنين أن ينتهي دون رد، حين جاءها صوته من بعيد، ليس عيبا في الاتصال، وإنما لغربة باردة في نبرة صوته. سألته :

- انت فينك؟

أجاب وهو يتحرك من كرسي مكتبه إلى الشرفة ليستنشق بعض الهواء :

- في البيت ..

- وحشتني قلت أسأل عليك

ماذا يفعل مع سلمى، وماذا يقول لها؟ هل يصارحها ويكون صادقا معها، أم يتغير معها حتى تكرهه، وهو يعلم انها لن تكرهه؟ لم يجبها، فقالت هي :

- مالك يا رحيم.. فيك ايه؟

حاول تهدئة توتره، وقال :

- ولا حاجة بس متلخبط شوية ..

- متلخبط ازاي، حاسس بايه؟

قالتها سلمى محاولة الفهم، فرد في جفاء :

- مش حاسس.

ضاقت الدنيا من حولها. لم تتكلم، لم تحاول تكرار نفس الأسئلة.. قالت :

- هشوفك امتى؟

كان يريد أن يحكي لها ما حدث في اليومين الماضيين، ولكنه كان خائفا عليها أكثر من خوفه من رد فعلها ضده. استمر صمته وهو يستقبل نسمات الهواء ويمر بعينيه بين المارة وبين أمواج البحر وقال :

- مشغول اليومين دول والله يا سلمى.. اول ما افضى نتكلم ونتقابل .

يزداد شعورها بالقلق.. يزداد شعورها بالخوف عليه.. بل والخوف منه. ولكنه يأبى أن يريح قلبها. كان رحيم مصرًّا ألّا يستمر في هذه الفوضى، التي خلقها بنفسه معها من أول يوم اقترب فيه منها بدافع الصداقة. لقد كان هو من اقترب وأراد منها الاقتراب. صمت كثيرا، حتى ظنت أنه فارق الحياة. أبعد أنفاسه عن الهاتف، حتى لا تستطيع تمييزها و معرفة إذا كان مضطرب أم لا. بعد فترة طويلة من الصمت قال :

- انا بحبك جدا يا سلمى بس مش هينفع نكون غير اصحاب.. بحبك أختي وصديقتي وما اعرفش استغنى عنك.. بس مش قادر أغشك واسيبك تعيشي حالة غير كده.. يا سلمى أنا..٠٠٠

كان وقع الكلام غريبا على أذنها وإن كانت تعلمه من ذي قبل. حاولت أن تخبره أنها ستظل بجانبه رغم ذلك، لكنها لم تستطع. إنها تشعر كأنها تموت.. لماذا الآن؟ لقد جعلها تنهار بمنتهى البساطة وهو يحدثها عن الصداقة ومزاياها !

قاطعته..

- معلش يا رحيم انا هقفل عشان امي تعبانة شوية.. هكلمك الصبح .

لم يغب عنه أنها تهرب، لتبكي بعيدا عنه وعن قسوته التي فتكت

بها في لحظة صراحة. لكنه فكر بمنطق العدل الوحيد، فلا يجب أن تستمر هذه العلاقة أكثر من ذلك، خاصة بعد أن وجد فتاة أحلامه وتاه فيها بمجرد أن رآها. ترك الهاتف وهو يلعن نفسه ويشكرها في نفس الوقت، ويمني نفسه أن سلمى ستكون بخير قريبا، وأنه

سيحرص أن تعرف قيمتها عنده وكم هي غالية على قلبه في إطار الصداقة .

بكت سلمى وهي تكتم صراخها في الوسادة حتى لا تقلق أحدا، وأخذت تئن حتى أنهكت وانتهت دموعها، وأحست أنها تستطيع الكلام، فأخذت هاتفها لتتصل بعهود كي تقابلها وترمي حزنها على كتف صديقتها لتخفف عنها. لم ترد عهود، فقد كانت غارقة في أحلام تجمعها بهذا الغريب، الذي اقتحم حياتها وتعرف جيدا ما يريد، لكنها لا تريد منه إلا صداقة تحميها من مخاوفها وتساندها أمام الدنيا.

لم تدر بنفسها إلا والفجر يؤذن بصوت دخل إلى قلبها يخبرها أن الله موجود رغم كل ما يفعله البشر. كانت في هذه اللحظة ما أحوجها إلى ملجأ.. ملجأ غير بشري، فحتى الصديقة لم تجدها عند حاجتها الحقيقية لها. للبشر أعذار للغياب، لكن الله موجود لا يغيب وها هو نداء الفجر يدعوها إليه. قامت إلى الحمام، فغسلت وجهها بماء بارد جعلها تشهق من برودته، ثم أكملت وضوءها ووقفت تصلي وتطلب من ربها أن يطيب قلبها ويرزقها الخير. دعت لرحيم، رغم قسوته عليها، أن يسعده وألّا يرى ما تراه الآن من انكسار .

عادت إلى فراشها تبكي، ولكن هذه المرة كان بكاؤها هادئا دافئا، كأنه يغسل قلبها ويفرج أوجاعها .

* * *

١٩

القاهرة

كان عاصم يعيش حالة من الراحة، بمزيد من الثقة في الله، ويتعامل مع الحياة على أنه تم قبوله في العمل الجديد، وأصبح مهندسا حقيقيا، ومعتبرا عمله منذ تخرجه في أي شيء إلا الهندسة مجرد ذكريات لأيام انتهت. رغم ذلك، لم يزر النوم جفنه طوال الليل.. كان مسرورا قلقا حتى جاء الصباح، فوجد هايدي تطرق بابه وتدخل لتوقظه، فوجدته جالسا في فراشه ولا أثر في عينه للنوم. نظرت له بتعجب وسألته :

- انت مانمتش؟ !

- ماجاليش نوم.. جوايا لخبطة رهيبة، خايف من الإحساس اللي جوايا انها فرجت خلاص.. مش عايز أقاومه، بس قلقان أقع من سابع سما .

جلست بجواره وربتت بيدها على كتفه ..

- فرجت يا عاصم.. ماتقلقش والله، هترجع من الإنترفيو ده مبسوط جدا .

قفزت من جانبه، لتعد له كوبا من النسكافيه باللبن، وتركته ليرتدي ملابسه ويستعد للنزول. جلسا بجانب والدهما الذي يفطر لقيمات خفيفة، وشرب الشابان كوبيهما، حتى إذا ما انتهوا، همَّ عاصم لملاقاه حلمه الذي انتظره كثيرا، مصحوبا بدعوات خالصة من قلب أبيه .

طوال الطريق كان ينظر للناس باستغراب، كأنها أول مرة يراهم. يرى متى كبر ومتى أصبح هذا الشخص الذي يحمل كل هذه التجارب. وصل مقر الشركة، وسأل عن مكان المقابلة، فدله العاملون للصعود للدور الثالث، حيث مكتب رئيس مجلس الإدارة، فصعد الدرجات متوترا، ومر الوقت لا يدري كيف، حتى وجد نفسه يجلس أمام الرجل، وبدأت المقابلة.

- أنا أشرف عبد المقصود.. صاحب الشركة والمسئول عن كل حاجة هنا.. بس الحقيقة اللي عارفها كل الناس اللي شغالين معايا اني الأخ الكبير لهم كلهم.

كان بشوشا مرحا، يسأله بلطف عن طبيعة حياته وطموحاته، وعاصم يجيب بلباقة عهدها الجميع فيه طوال عمره. كان توتره ظاهرًا، فقام المدير من مكانه وجلس على الكرسي المقابل لعاصم قائلا في تبسط :

- فك كده يا هندسة.. احنا هنشتغل سوا يعني هنبقى عيلة واحدة.. واحنا هنا كلنا اخوات واصحاب فبلاش توتر كده عشان تندمج معانا بسرعة .

فهم عاصم المهمة التي يريدون لها مهندسًا شابًا، فالشركة وقعت مشروعات أكبر من إمكانيات موظفيها، وبالتالي مر الوقت دون إنجاز يبشر بإتمام المشاريع في موعدها، ولذا يريدون من يعمل في مشروع بالذات، مضى على عقده مدة. ظل يسأل عاصم عن رأيه في بعض الأشياء، وينصت جيدا له يتفحص إجاباته. سأله إن كان يمكنه أن يقوم بإعداد الهندسة الإنشائية لمخطط الفرع الجديد الذي يريد أن يفتتحه لشركته، ففكر عاصم للحظات، ثم قال له في هدوء:

- أعمله طبعا، بس أنا ماعنديش خبرة زي ما حضرتك عرفت، فلو ممكن يتعرض على حد أكبر يراجعه بعدي ويقول ملاحظاته يبقى أحسن أكيد.

ابتسم أشرف، وظل ينظر لعاصم معجبًا بأمانته. إن العثور على شخص أمين وغير مغرور بذاته شيء نادر في هذا الزمن. لمعت في رأس أشرف فكرة، فنظر لعاصم بحماس، وقال وهو يقوم من على كرسيه :

- قوم بينا نروح موقع الفرع الجديد، عشان هنبدأ الشغل حالا .

لم يصدق عاصم ما سمع! هل بهذه السرعة قد التحق بالعمل؟ هل هذا حلمه يتحقق، بعد كل هذا الوقت وكل هذه المعاناة؟ تحرك عاصم ومديره الجديد متجاوزين الموظفين، نزولا على السلم، حتى ركبا السيارة..

- تحب تسمع ايه؟

نظر له عاصم غير مصدق ما يحدث. فجأة يرزقه الله بالعمل الذي يريد، مع شخص غريب وبشوش كالذي يجلس بجانبه! نظر عاصم له بذهول وابتسامة، وحار للحظة ثم قال:

- أي حاجة على ذوقك يا فندم.

ضحك أشرف بصوت عالٍ وقال:

- يابني بقولك انا هنا أخوهم الكبير، ايه يا فندم والكلام القديم ده.. بص قول لي يا هندسة زي ما كله بيقولها.

ابتسم عاصم، وكرر جملته:

- أي حاجة على ذوقك يا هندسة.

شغل أشرف مقطوعة موسيقى رقت روح عاصم لها، وراح ينصت مستكشفا ذوق مديره الجديد.

وصلا للموقع، فترجلا من السيارة، ووقف عاصم أمام قطعة الأرض الخالية، وبجانبه المدير، بشموخ ينظر لقطعة الأرض التي نجح في الحصول عليها، ويأمل فيها المستقبل المشرق لهذا الفرع، ليحذو حذو أشقائه الكبار. نظر لعاصم بابتسامة وقال:

- عارف.. أنا مش محتاج من الفرع ده مكسب.. أنا محتاج بس اني اثبت لنفسي اني اقدر اعمل إيرادات عشر سنين في سنة واحدة.. انت مش متخيل كمية المتعة هتكون قد ايه لو ده حصل.

يعرف عاصم نشوة الانتصار.. نشوة النجاح المجردة من حسابات المكسب المالي. لقد عاشها حتى في أسوأ أيامه، وهو يتحدى ليجيد ما يفعله، وإن كان بعيدا كل البعد عن مجال دراسته وشهادته الجامعية. تأمل الأرض بعين مهندس، وتأمل المباني المحيطة بها، ثم سأل :

- هو التصميم مع حضرتك يا هندسة؟

ضحك أشرف ضحكة عالية، ثم قال وهو يتحرك إلى سيارته، ويفتح حقيبتها الخلفية ليخرج أدوات "فادي" التي يستخدمها في تصوير المكان والقياس، والتي تركها معه منذ أمس :

- التصميم معايا في الشنطة هاجيبلك نسخة. ابدأ شغلك حالا دلوقتي.. وده رقم المهندس فادي، لو احتجت أي مساعدة كلمه، وهو مش هيتأخر عليك.



٢٠

الأسكندرية

في صومعته، كان يسترخي مغمضا عينيه، يحاول أن يطرد التوتر من روحه. كان قد قرر أن يختلي بنفسه ولا يتواصل مع أحد ولكنه لم يستطع أن يقاوم شوقه أن يفتح هاتفه، ليبحث عن أي جديد من عهود. نظر إلى الصورة التي أرسلتها له عهود، فلم يصدق هذا القرب المذهل بين ما في خياله للغلاف وبين هذه الصورة. اتصل بها ليشكرها، فلم تجب اتصالاته، فأرسال لها رسالة فيها كلمتين: "الصورة عظيمة ". نفض الكسل عنه، وقام يعمل في الغلاف بحماس كبير، وهو يهز رأسه ممتنا لهذه الساحرة، متعجبا من مدى توافق خيالهما معا.

بعد الفجر بقليل، وقبل ظهور خيط النهار الأول، استيقظت عهود من نومها أخيرًا، وكانت قد أعطت نفسها الحق في الكسل والراحة بلا مقاطعة، فجعلت هاتفها صامتا. أمسكت هاتفها، نفضت شعرها عن عينيها، وتصفحت الاتصالات الفائتة، فوجدت عدد مرات اتصال غير طبيعي من سلمى. اقشعر جسدها خوفا عليها، فاتصلت بها مرة تلو الأخرى، لكن دون رد. أرسلت لها

رسالة تخبرها فيها أنها كانت نائمة، وتؤكد عليها ضرورة الاتصال عليها بمجرد رؤيتها لهاتفها. أخذت نفسا طويلا، وألقت برأسها على الوسادة مرة أخرى، وتنفست بانتظام تهدئ من التوتر الذي أحدثته اتصالات سلمى بها، ثم فتحت رسالة رحيم، لترى ماذا فعل. قرأت ما كتب، فابتسمت معتزة بذكائها، واتصلت به..

- صباح الخير .

كان مستيقظا لم ينم بعد. ابتسم لجنونها إذ تتصل به ولم تشرق الشمس بعد، ورد عليها وهو يتحرك ناحية الشرفة

- وهم

تعجبت من الكلمة ولم تفهم قصده. قالت :

- نعم!

تابع رحيم بنفس نبرة الصوت المتحمسة :

- الصورة دي وهم.. خدتيها امتى وفين بالظبط؟

ابتسمت وهي تتذكر كيف التقطتها، وكيف أهدتها المصادفة القدرية هذه الصورة. لم تكن تتوقع أن تفرط في هذه الصورة وبهذه السهولة من أجل أحد. قالت :

-الصورة دي ليها حكاية غريبة وغالية جدا عندي.. بس ماتغلاش عليك .

-احكيلي .

قالها رحيم وهو يتكئ على سور الشرفة، ويستمع لها بانتباه. كانت تتحدث عن ذلك اليوم بنشوة غريبة وصلت له من كلماتها. قال لها ضاحكًا:

- مش عارف استمر في استخدامها فعلا في الغلاف.. ولا من كلامك عنها احتفظ بيها لنفسي .

قالت في حماس:

- لأ استخدمها طبعا.. هنبسط قوي لما الاقيها على غلاف من أغلفتك .

رد رحيم بنبرة هادئة سعيدة:

- فعلا هستخدمها.. وهيفضل الغلاف ده هو المفضل بالنسبالي عشان انتي اللي صورتيه .

انتبه فجأة وسألها:

- انتي ايه اللي مصحيكي دلوقتي؟

تذكرت صديقتها، فتغير صوتها فجأة:

-نمت كتير قوي.. وقلقت لقيت صاحبتي متصلة عليا كتير قوي وقلقانة عليها .

- ماتقلقيش.. إن شاء الله هتكون كويسة .

صمت.. لم يعد يجد ما يقوله لها، لكنه يريد سماعها إلى آخر عمره. ساد الصمت بينهما وهي غارقة في تفكيرها في صديقتها، لكنها عادت تفكر أنها قد تكون نائمة بعمق بعد أن سهرت طويلا واتصلت بها بهذا الجنون. سألته:

-وانت ايه اللي مصحيك لغاية دلوقتي؟

- انا مابنامش بالليل.. أنا حياتي كلها بتكون بالليل.

قالت:

- وبتنام امتى؟

قال وهو يعيد النظر للشارع:

-بخطف كام ساعة كده بالنهار.

حكى لها عن عمله وسهره.. وحكت له عن عملها الذي تحبه، وشغفها بالتصوير، وحبها لفرحة الناس بصورهم، بعد اختيارها بدقة عالية لتكون عند حسن ظنهم. شعر في كلامها عشقا لعملها، كما يعشق عمله. شعر أنها تشبهه، أو هي أقرب لأن تكون نسخة طبق الأصل منه. سألها:

-حكايتك ايه؟

لم تجب. ساد الصمت طويلا، فتابع:

-انتِ مين؟

تذكرت ماضيها.. حالها، وما وصل إليه في آخر خمس سنوات. لا تعرف إن كانت تريد أن تحكي له أم لا، وإلى أن تقرر بوضوح، قالت وهي تهرب من سؤاله :

- انا عهود يابني انت نسيت ولا ايه؟

ضحك من إجابتها وقال :

- عارف انك عهود.. بس عايز أعرف مين عهود. احكيلي عن نفسك .

قالت :

- بص يا رحيم.. انا مريت بتجارب صعبة في حياتي، وشوفت حاجات مظنش أن حد يقدر يبقى كويس بعدها بسهولة.. بس النتيجة دلوقتي اني سبت بيت أهلي وعايشة لوحدي. مافيش في حياتي غير ٣ حاجات بس: شغلي، أصحابي، الكنيسة.

أخبرته أن عملها هو رقم واحد في حياتها.. أصدقاءها قليلون، ولا تتواصل مع أحد منهم باستمرار، إلا صديقة مقربة واحدة، وهي التي كانت قلقة عليها. والكنيسة، تعرف أنها مقصرة في حقها، وأنها تتكاسل دوما عن الذهاب إليها رغم أنها تقدسها وتحبها وتتمنى الانتظام في الذهاب إليها. قالت له إن أكثر من تحب في الحياة هما مارية والدتها، ومريم العذراء الأم .

قال وهو مبتسم :

- عارفة أن جدتي اسمها مارية !

سكتت تتذكر والدتها، فتابع :

- انتي عارفة انها كانت مسيحية!

جحظت عيناها من الدهشة، ولم تصدق ما يقول. سألته :

- مش انت مسلم يابني؟

ضحك من سؤالها وقال :

- اه مسلم الحمد لله .

- اومال ايه حكاية جدتك دي؟

رجع برأسه للوراء، ليتذكر طفولته وحكايات والده عنها وعن بداية الرحايمة، وقال :

- في يوم من الأيام هتسمعي حكايتها بنفسك .

سمع رحيم صوت اتصال آخر يأتيه وهو يتحدث مع عهود، فاستأذنها لحظة ثم أجاب :

- خير يا عمي ايه اللي مصحيك دلوقت؟

قال أمين وهو يتحرك بعيدا عن زوجته، وبصوت مبحوح وعين دامعة :

- تحية بتموت يا رحيم.

في منزل قديم، سقط طلاؤه بسبب ملح البحر الذي يهاجم الجدران دوما، جلس أمين على الأرض بجانب السرير، يضع القماشة بعد أن بللها بماء بارد على جبين تحية. فتكت الحمى بجسدها، فلم ينجح الماء البارد في خفض حرارتها، وبصوت لا يكاد يخرج من حلقها طلبت من زوجها أن يتصل برحيم، كي يكون بجانبهما الآن.

أغلق رحيم الهاتف دون رد، ولا عودة لمكالمة عهود للاعتذار. وفي الطريق اتصل بإبراهيم صديقه ليأتي بالطبيب ويسبقه إلى بيت عمه، فهو الأقرب لمكانه. هدأ قليلا حين وجد إبراهيم قد وصل بالطبيب قبله وينتظرانه أمام البناية، فصعدوا ثلاثتهم، ولكن ليجدوا أمين العجوز هادئا ساكنًا وكأنه فاقد للتركيز وهو يخبرهم أن حبيبته وأمه وابنته وكل أهله قد تركته. مجرد تعب يومين أنهك جسدها، الذي كان مستعدا للنهاية، فاستسلم للموت بسرعة، كي لا يجهد من أحبه وآنسه عمرًا حافلًا . كان أمين جالسًا بجوارها، يبكي دون نواح، ويقبل يديها ورأسها في حال من الضعف لم يتخيل رحيم أن يراه عليه أبدًا. انصرف الطبيب، وبقي الشابان في الصالة حتى الصباح، بينما أمين مع تحية يتذكر عشرتهما السعيدة، بل والتعيسة أيضا، والتي كانت تمررها له، حبا فيه .

نزل الصديقان، فسألا الجيران عمن يغسِّل ويكفن بالمنطقة، فهما لا يعرفان أحدًا هنا، وحتى أمين وتحية لم يختلطا بجيرانهما إلا في حدود طيبة لكن ضيقة. أصر أمين على المشاركة في حمل نعشها، فكان رحيم وصديقه يرفعان النعش يخِفَّانه عن كتفه رأفة بضعفه الذي لا يحتمل هذا الحِمل الشاق. وعندما أغلق عليها القبر، وصارت وحيدة هناك، لا علاقة لها بهذه الدنيا التي تحمل أنفاس

أمين، لم يطق أمين أنفاسه وانهار باكيا، وهو يشعر أن الموت خطف حياته مع خطفه زوجته. جذبه رحيم لينصرف به، فقد صار البرد في المقابر قاسيًا، فظل يردد :

- على عيني اسيبك وامشي يا غالية.. على عيني والله .

كانت نبرة صوته تبكي الحجر. لقد أحبها حبًا صادقًا، ورغم شجارهما المستمر، كانت خير رفيقة له في دنياه، ولم تتركه يوما واحدا بمفرده منذ أن جمعتهما الحياة والنصيب في بيت واحد.

اتصلت عهود لتطمئن على رحيم وتفهم ماذا حدث في تلك المكالمة التي قطعت حديثهما، لكنه قطع الاتصال، وأرسل إليها رسالة يخبرها باختصار عما حدث، وأنه سيقضي بعض الوقت مع عمه حتى يطمئن عليه، قبل أن يعود إلى شقته. ردت عليه تعزيه وتقول له: " ربنا يصبره.. لو احتجت أي حاجة انا موجودة يا رحيم"

رغم قتامة ما هو فيه، انتفض قلبه لكلمتها.. "أنا موجودة"، هذا أجمل ما أهدته الحياة به. رد عليها برسالة قصيرة فاجأتها:

"يارب دايما"

ابتسمت وهي تهز رأسها متعجبة من جنونه في أشد الأوقات كآبة، والذي يجذبها إليه مع الوقت أكثر وأكثر.

***

٢١

الأسكندرية

فُتح الستار في غرفة سلمى، لتخترق الشمس البرد الذي كان يحاصر تلك النائمة في الفراش لا تريد الاستيقاظ. لم تميز سلمى ذلك الظل الذي تأتي الشمس من خلفه عند باب الشرفة، إلا عندما اقتربت منها عهود لتقول بصوت مرح :

- كل ده نوم يا سلمى ..!

لم تزر عهود سلمى في منزلها إلا مرات قليلة. لكن في ظرف كهذا لم يكن بد من أن تأتي وتطمئن بنفسها على صديقتها التي طال عدم ردها على الهاتف، حتى جن جنون عهود قلقا عليها. قالت دون حماس:

- كنت محتاجة أنام كتير .

ضاحكتها وهي تدفعها إلى الداخل قليلًا..

- طيب حاسبي شوية كده خليني أعرف أقعد جنبك

جلست عهود بجانب سلمى، التي اعتدلت في جلستها دون تفاعل مع مرح صديقتها، التي اقتربت منها أكثر وقالت :

- قلقتيني عليكي.. كنت نايمة وانتي رنيتي عليا كتير ولما صحيت اتصلت عليكي كتير.. لما ماردتيش كان لازم اجي اشوفك بنفسي. مالك؟

وكأن السؤال "مالك؟" كان ضغطة الزر التي كانت تنتظرها سلمى لتترك نفسها تنهار بين ذراعي عهود. أمها وأختها ليستا أهلا لحمل همها هذا، ولا تستطيع الفضفضة معهما أو إخبارهما بقصتها الفاشلة. أخذتها عهود في حضنها، وأخذت تهدئ من روعها، حتى استطاعت أن تخرج الكلمات من بين نهنهاتها ..

- اللي حبيته من وسط الدنيا كلها مش قادر يحبني

تابعت وهي تمسح دموعها وتنظر لصديقتها :

- هو انا وحشة يا عهود؟.. شخصيتي مملة مثلا؟ !

ربتت عهود على كتف صديقتها، وهزت رأسها نافية كلامها، وقالت :

- مين الحمار اللي قال كده؟

- ماتقوليش حمار .

ضحكت عهود من رد فعل صديقتها. لم تطلب منها أن تحكي لها أكثر، فمبدئيا يكفيها أن ترى ابتسامتها بعد هذه الجملة. قالت عهود وهي تقوم من مكانها لتجلس أمام المرآة :

- انا هتغدى معاكو النهارده ..

قالت سلمى وهي تزيح الغطاء من عليها، وتنزل من على السرير، وتتحرك في اتجاه عهود:

- تبقي هتاكلي أحلى أكل من ايدي يا عهود

ضحكت عهود وقالت:

- للدرجة دي مستغنية عني يا حبيبتي.

حاولت سلمى أن تبتسم، لكن أقصى ما استطاعته كان ابتسامة باهتة تعكس الحزن وليس المرح. جلست على حافة السرير وقالت:

- أنا تعبانة قوي يا عهود.. أنا حاسة أن روحي بتخرج مني بالبطيء.

عادت عهود إلى جوارها، وقالت لها في حنان:

- طب ما تحكيلي يا سلمى.. احكيلي اشيل معاكي شوية.. ده احنا اصحاب يا بت وللا مش واخدة بالك؟

نظرت في عين صديقتها وتمنت أن تحكي لعهود، ولكنها كانت يائسة تماما، وترى أن لا جدوى من الحكي. إنها لم تحك شيئا وقت أن كانت سعيدة، فهل تثقل على عهود وقت الهم فقط؟! أومأت برأسها وقالت لها..

- ماعادش منه فايدة يا عهود، الموضوع خلص.

حاولت عهود أن تقول شيئا، ففتحت فمها وأغلقته ولم تجد ما تقول، وخرجتا معا من الغرفة متجهتين إلى المطبخ، لإعداد وجبة

خفيفة تتناولاها سويا. كانتا واقفتان جنبا إلى جنب، وكل منهما تتذكر شيئا ما. تتذكر عهود والدتها التي كانت دوما تحب وجود ابنتها معها في المطبخ.. وتتذكر سلمى رحيم الذي ضمها إليه في مكان يشبه مكانها الآن. دخلت أخت سلمى عليهما المطبخ، لتخبرها أنها ستذهب للدرس، فقالت سلمى :

- بصي على ماما قبل ما تنزلي.

هزت أسماء رأسها وهي تتحرك إلى غرفة والدتها، فأوقفها صوت سلمى :

-معاكي فلوس؟

كررت أسماء هز رأسها بالإيجاب، فقالت سلمى :

-خدي فلوس من تحت المخدة بتاعتي عشان لو احتاجتي حاجة وانتي بره .

كانت عهود غريبة بالنسبة لأسماء، فاحمر وجهها وابتسمت خجلا، وغادرتهما إلى والدتها.. وإذا بصرختها تعلو منادية:

- الحقيني يا سلمى

كانت أمهما على سريرها تعاني لأخذ أنفاسها. اتصلت سلمى بالطبيب الذي يتابع أمها، والذي لم يتأخر وكشف عليها مسرعا، ثم قال وهو يخرج هاتفه :

- لازم تدخل المستشفى فورا .

اتصل بالإسعاف، التي نقلتها إلى المستشفى العام، ثم تطور الأمر بسرعة وعرف أحد أقربائهم بما حدث، وساعدهم في نقلها إلى مستشفى خاص تربطه بصاحبها صلة قوية، حيث ستكون والدتها بها في أمان.

حدث كل شيء بسرعة.. نقلوا الأم من المنزل إلى المستشفى، ومنها إلى القاهرة للمستشفى الخاص. خوف سلمى على والدتها جعلها تنصت للنصيحة والكلام دون مجادلة.

في المساء، كانت الأسكندرية تشفق على أمين وأحزانه، ورحيم يرافقه ويحاول الاعتناء به. وكانت القاهرة تتعجب من عهود الصديقة التي ترافق صديقتها الباكية خوفا على أمها. كان اختفاء سلمى عن رحيم لا يقلقه، فهذا رد فعل طبيعي بعدما جرحها، ولابد أن يتركها تهدأ وتستوعب الوضع الجديد قبل أن يحاول الاتصال بها والاقتراب منها. سلمى كانت في هذه اللحظات تفكر فيه.. تتساءل وتتهكم على معنى الصداقة التي يحدثها عنها، وهي الآن في غربة وأزمة وليس إلى جوارها إلا عهود التي سافرت معها ولم تتركها لحظة. حتى قريبها الذي لا يكاد يعرفهن إلا من خلال اتصالات هاتفية روتينية في المناسبات وجدت منه المساندة، وأما أنت يا رحيم فلم أجدك في الأزمة إلا وجعًا ورفضًا وهروبا. فكرت وهي تتأمل أختها التي تبكي في صمت أن عليها أن تفيق من كل ذلك. إن الخطأ ليس منها ولم تتهيأ لها أشياء وأوهام بل هو من غازلها مرات

كثيرة ودعاها لمنزله كذلك، فأي صداقة هذه التي يحدثها عنها مبرئا نفسه، وأين كانت براءة الصداقة حين احتضنها في مطبخ شقته؟!

ترفقت بها السماء، ولطفت قسوة الأحداث المتتالية بتحسن حالة والدتها شيئا فشيئا، ولكن كان أمامها بضعة أيام من العلاج بالمستشفى، فكان أمام سلمى حل من اثنين، وكلاهما مرهق لها، الأول أن تقيم في القاهرة هذه الفترة لتظل بجانب والدتها، وكان هذا صعبا، فشقيقتها مرتبطة بدروسها في هذه السنة المصيرية، ولن تستطيع تركها بمفردها في الأسكندرية.. والحل الآخر هو أن تسافر ذهابا وإيابا بين والدتها وشقيقتها، بين القاهرة والأسكندرية. كان الحل الثاني أكثرهما إرهاقا وأكثرهما قابلية بالنسبة لها. حاولت عهود أن تقنع سلمى بأن تأخذ شقيقتها تمكث معها هذه الفترة، ولكنها رفضت لمعرفتها الجيدة بشقيقتها التي لم تألف عهود بعد، ولن توافق على هذا، فاستقرت على أن تمضي هذه المدة بين القاهرة والأسكندرية، يوم هنا ويوم هناك .

كان رحيم مع عهود لحظة بلحظة عبر رسائل الهاتف، يطمئن عليها، ويطمئنها عليه. وفي الصباح، استقلت البنات القطار العائد إلى الأسكندرية، لتذهب سلمى وشقيقتها إلى البيت، وتتركهما عهود لتتابع عملها، بعد أن صممت سلمى أن تغادر صديقتها على وعد بأن تتصل بها إن احتاجت أي شيء.

* * *

٢٢

القاهرة

انتهى عاصم من التصميم الإنشائي المطلوب منه، وعرضه على أشرف، الذي لم يخف إعجابه بعقل عاصم، فهو بواقع خبرته في المقاولات يستطيع أن يميز بين المهندس الملتزم بما تعلم والمهندس المبدع .

كان عاصم مبدعا، يريد دائما أن يستمتع وهو يعمل، ويبهر الجميع. في فترة قليلة استطاع عاصم أن يكتسب ثقة مديره، واستطاع أن يكسب ود الجميع في الشركة من إداريين وموظفين وعمال. نشأت صداقة كبيرة بينه وبين "عبد الله"، السوداني الذي جاء لمصر ليعمل بها عاملا في أحد الشركات، ليكسب قوت يومه.

كان عبد الله طويلا، أسمر البشرة، بشوش المحيا، وابتسامته لا تفارق وجهه. كان عاصم يحبه وقد صارا صديقين منذ كلفت الشركة عبد الله بمرافقة عاصم في النزول إلى المواقع. كان سر إعجاب عاصم به هو إصرار عبد الله على تطوير نفسه وتعليه شأنه، فعبد الله رغم كبر سنه قد التحق بكلية التجارة بجامعة خاصة،

ويتعلم اللغة الإنجليزية، ويعد نفسه ليسافر إلى الولايات المتحدة في أقرب وقت. سأله عاصم :

- ايه اللي رماك على مصر لما انت ناوي تسافر امريكا يا عبد الله.. وهتسافر لمين هناك؟

ابتسم عبد الله، وبانت أسنانه البيضاء، قال بلهجته السودانية الجميلة التي يحبها الجميع وهم يسمعونه:

- الله يسامح الحاكم يا أستاذ عاصم.. في السودان العامل السوداني مرتبه قليل.. انا جيت هنا عشان اعرف اعيش واتعلم عشان اسافر لاخويا امريكا .

ضحك عاصم لما يعرف عن المعيشة والتعليم في مصر، تابع عبد الله :

- تعرف يا استاذ عاصم.. انت لو اشتغلت في السودان تقبض بالدولار ومرتب عالي جدا.. وانا كسوداني لما اشتغل نفس الوظيفة اقبض بالجنية السوداني ومرتب قليل .

صمت عاصم برهة، ثم قال لعبد الله :

- لما تسافر أمريكا متنساش بقى تبقى تسأل علينا .

- أكيد يا أستاذ عاصم.. ده احنا واكلين عيش وملح .

دخل عليهم المدير فجأة، فكان عاصم واقفا يرتشف الشاي، وكان عبد الله جالسا على كرسيه بجانب الشاي والقهوة. قال أشرف مبتسما :

- انت ماوقفتش ليه لما شوفتني جاي يا عبد الله .

ظل عبد الله جالسا مكانه، وقال بنبرة هادئة :

- حضرتك ليك عندي شغل وليا عندك مرتب.. لما اقصر في شغلي يكون فيه خصم من المرتب وانا خلصت شغلي ومستني أي شغل جديد ينطلب مني.. غير كده مفيش .

ضحك أشرف وربت على كتف عبد الله، ثم قال لعاصم :

- تعالى معايا عايزك .

ثم التفت لمسئول الحسابات وقال :

- حط ٢٠٠ جنيه لعبد الله على المرتب .

تحرك أشرف إلى مكتبه، وقبل أن يتبعه عاصم مال على أذن عبد الله وقال :

- ليا عندك عزومة بقى .

تحرك عاصم وراء مديره، ودلف وراءه المكتب. جلس أشرف وبدأ الكلام فورا بينما جلس الآخر في الكرسي الذي أمامه :

- بفكر نفتح في اسكندرية يا عاصم ايه رأيك؟

ابتسم عاصم وقال :

-اللي تشوفه يا فندم .

- ما انا بسألك يا عاصم .

بنفس الابتسامة أجاب عاصم :

- انا مهندس يا فندم.. وسؤالك ده محتاج حد دارس السوق هناك كويس يقدر يفيدك. إنما أنا دوري يبدأ بعد دراسة الجدوى التسويقية هناك

قال أشرف :

- برافو يا عاصم.. أكتر حاجة بتعجبني فيك أنك معتز بنفسك وتخصصك وفي نفس الوقت مش بتفتي في حاجة ماتعرفهاش وبعيدة عن مجالك. الناس دلوقت تكلم واحد متخصص في الذرة يفتي لك في البصل وتكلم واحدة ماخرجتش من البيت تفتي لك في شئون وكالة ناسا الفضائية

ضحكا معا، ثم أضاف أشرف:

- عموما أنا دارس المكان كويس ومقرر.. أنا فعلا اشتريت الأرض اللي هيتعمل عليها الفرع الجديد .

قام من مكانه، وتحرك ناحية النافذة، وقال وهو يتنفس بصوت واضح :

- حتة الأرض دي في سموحه.. خدتها بطلوع الروح يا عاصم.. لازم الفرع ده يكون أحسن من كل اللي موجودين في القاهرة .

- إن شاء الله يا فندم .

تنهد أشرف وقال :

- طب جهز نفسك بقى عشان هنسافر بكرة نشوف المكان عشان نبدأ شغل .

هز عاصم رأسه في إيجاب، ثم تحرك إلى الخارج لينهي عمله في مكتبه، ليكون مستعدًا للسفر في الغد. اتصل بشقيقته وقال لها :

- مسافر اسكندرية بكره، ربنا يخليكي اكويلي قميص وبنطلون علشان مش هالحق أكوي بالليل .

أخذ نفسا طويلا ثم تابع :

- وماتناميش قبل ماآجي عشان عايزك .

دخل عليه أشرف المكتب قبل أن يغادر الشركة وقال :

- المفروض اننا كنا هنسافر بكرة سوا بالعربية بس حصل عندي حاجة كده هخلصها وهحصلك.

أعطاه العنوان، وأخبره أن يتصل بفادي ليرتب معه كل الأمور..

- هو هناك من يومين سبقنا يخلص ورق بخصوص المكان.

قالها أشرف، ثم اتصل بفادي وطلب منه أن ينتظر عاصم باكرا، وأنه سيكون معهما قبل نهاية اليوم. غادر أشرف، فاستقبل عاصم اتصالا من فادي ليتحدثا في كل شيء يخص سفره في الغد .

* * *

٢٣

الأسكندرية

ظل رحيم بجانب عمه لا يفارقه.. يبيت معه في سرير واحد، يضمه ويهون عليه خسارته. كان ما يسانده في هذا الموقف تواصله مع عهود على مدار اليوم، تتابع أخباره ويتابع أخبارها..

- هترجع بيتك امتى ..

- احتمال كبير ارجع بكره.. بس ليه؟

نظرت إلى الحاسوب وهي تقرأ الرسالة مرة أخرى للتأكد من الموعد، وقالت :

- لا بتطمن عليك بس ..

قال :

- يبقى أشوفك بكرة لو رجعت .

-عندي شغل بكرة

رد :

-عايز اشوفك وانتي بتشتغلي.

قالت :

- مانت شوفتني. ههههه ما بلاش تاني يا عم رحيم

أخذت نفسا، ثم تابعت :

- أنا شغلي الأساسي أصور أفراح.. المظاهرات والكلام ده هواية.

ضحك بصوت منخفض حتى لا يسمعه عمه، قال :

- مع انه المفروض يبقى العكس بس ماشي.. نتكلم بكرة ونتفق .

وفي الصباح، استيقظ رحيم ونزل فأحضر بعض الطعام للإفطار، ثم أيقظ عمه وطلب منه أن يتناول الطعام معه. رفض أمين، وقد صار يرفض كل شيء بعد موت تحية، كأنه يريد اللحاق بها. ألح عليه ابن أخيه، ومع الإلحاح تناول معه بعض اللقيمات، ثم قام رحيم فأعد كوبين من الشاي، ناول إحداهما لعمه وهو يقول له :

- النهارده هنروح شقتي بقى يا حاج عشان تعيش معايا هناك واعرف اخد بالي منك وأقدر أرجع لشغلي .

أرسل أمين عينه إلى الحجرة الداخلية، وقال :

- انا مش هسيب هنا يا رحيم.. روح شوف اللي وراك وابقى طل عليا من وقت للتاني .

نظر رحيم في الأرض كأنه يرتب كلماته، ثم قال :

- يا عميماينفعش اسيبك هنا لوحدك.

أنهى الكلام وهو يغادر الطاولة :

- انا مش لوحدي.. تحيه هنا معايا .

تأكد رحيم أنه لن يستطيع أن يثني عمه عن قراره، فكان الحل إما أن ينقل أجهزته في هذه الشقة، أو أن يذهب في الصباح إلى شقته لينجز ما وراءه، ثم يعود في الليل ليبيت مع عمه. أخذ من عمه نسخة من مفتاح الشقة، وذهب إلى شقته، حيث تكوَّمت أغلفة ولوحات دعائية كثيرة يريد إنجازها، فقد اقترب معرض الكتاب. أول ما فعل عند وصوله شقته التي افتقدها، أن دخل إلى المطبخ ليعد لنفسه فنجانا من النسكافيه باللبن. تذكر سلمى، وتذكر غيابها عنه، فأخرج الهاتف يتصل بها ليطمئن عليها، لكنها لم ترد. كان يتوقع ذلك، ويعرف أنه جرحها جرحا كبيرا لن يتداوى بسهولة .

دخل إلى صومعته، مكانه الأحب، فألقى بجسده على السرير، ثم اتصل بعهود، فأجابت عليه فور اتصاله، فسألها :

- هتنزلي لشغلك الساعة كام عشان قررت آجي معاكي .

ضحكت وقالت :

- هو انت ابن اختي وشابط تيجي معايا؟ باي .

ضحك عاليا ثم قال :

- أنا عايز أشوفك النهارده، ولازم أشوفك النهارده، ومش عايز أعطلك عن شغلك.. هاجي معاكي وأمرك لله

تنهدت، وتأكدت أنها تتعامل مع طفل كبير.. قالت :

- حاضر .

أغلق كل منهما الخط، لينهي ما وراءه من عمل تأخر فيه بسبب انشغال الأيام الماضية. جلس رحيم إلى مكتبه، وفتح حاسوبه وبدأ يعمل على تصميماته، بينما أخذت عهود تجهز أدواتها وتتأكد من كل شيء.. البطاريات، الإضاءة، تنظف العدسات.. تحب ألا تفاجأ أثناء العمل بأي مفاجأة سخيفة. مر النهار سريعا مزدحما، وأتى المساء، فأرسلت له عهود أنه حان الوقت ليستعد، وبعد نصف ساعة يقابلها أمام منزله. رد عليها بسؤال:

- هتلبسي ايه؟ .

- هالبس حاجة عاجباني.

- باتكلم بجد.. ها هتلبسي لون ايه طيب؟

- أسود.. انا بعشق الأسود

فتح دولاب ملابسه، واختار ملابس سوداء تليق به وبها، فهو يعشق الأسود أيضا. نزل على السلم يغني أغنيته المفضلة بصوت عالٍ، كفيل بأن يجعل من يسمعه يلقي بأي شيء في وجهه..

" هلم الهدوم والهموم واللعب.. وصورة حبيبتي اللي بين الكتب.. وهكتب لصاحبي اللي سافر جواب.. هقوله أن صاحبك حبيبك تعب.. وقرر يسافر "

كان صوته عال، وكانت عهود تقف عند باب البناية في انتظاره، فسمعت صوته يغنيَ، فضحكت وقالت مكملة الأغنية معه :

"مسافر و فاكر هترتاح هناك.. وتاخد صحابك وحلمك معاك.. ومامتك واختك وخالتك واوضتك.. هينفع تسيب اللي حبك وراك؟"

ضحكا سويا على أدائهما للأغنية، التي يحبانها كثيرا. عبرا الطريق، وركبا سيارة أجرة، لتقلهما إلى مكان الفرح، لتبدأ عهود عملها فتنسى كل شيء حولها، حتى رحيم، الذي جلس يتابعها من بعيد.



٢٤

القاهرة

تأخر عاصم في العمل، ينهي كثيرا مما لم يكن في حسبانه أن ينهيه اليوم، ولكن السفر المفاجئ جعله يحتاج لساعات كثيرة، ليعوِّض غيابه في الأيام القادمة في الأسكندرية.. في الطريق إلى المنزل، اشترى لشقيقته سلسلة فضية، كانت قد وضعت صورة لها على صفحتها الشخصية، وتمازح صديقاتها أن تأتينها بها كهدية. أخته الحبيبة هي صاحبة الفضل بعد الله فيما هو فيه الآن. إنه وقت قليل منذ عمله في الشركة قد مر، ولكنه فيه بدأ يشعر بتحقيق ذاته وقيمتها في تخصصها، وبقيمة أخته وسعيها لأجله. حين وصل للمنزل، وجدها نائمة، فقبل رأسها، ولم يوقظها، وترك لها السلسلة على مكتبها، ثم دخل غرفته ونام على الفور، حتى لا يفوته موعد القطار .

في الصباح المبكر، تحرك إلى محطة القطار، ليأخذ طريقه إلى الأسكندرية، وكان قد حجز تذكرة عبر الإنترنت، لعدم قدرته على المرور على المحطة لتأخره في المكتب. وصل والقطار على وشك التحرك، فبحث عن مقعده، وجلس وتنفس الصعداء، ممنيا نفسه بمنح جسده بقية النوم الذي يحتاجه بشدة. جاء مكانه بجانب فتاة،

تضع على فخذيها كمبيوتر محمول، والسماعات في أذنها، وتبدو عليها الجدية، فحمد الله أنها لن تزعجه بالثرثرة التي تدمنها الفتيات. ارتمى في كرسيه وأسند ظهره ورأسه، وأغمض عينيه محاولا الاسترخاء. اهتزاز ضعيف إلى جواره جعله يفتح عينيه ليرى ما يحدث، فهو بخبرته في الحياة لا يسارع بالأمان لمن لا يعرفه. كان كل ما هناك أن الفتاة تتحرك لأخذ منديل ورقي من حقيبتها. كاد يغمض عينيه مرة أخرى، لكنه لمح شاشة حاسبوها دون قصد، وكانت تكتب عليها :

"لم تكن أمي في هذه الحالة المستقرة أبدا منذ مرضت وحتى اليوم. استقرار حالتها هذا يقلقني، ويجعلني أفكر في احتمال أقسى من أن أتحمله. صحوة الموت ما أرى أم أرى غفوة الحياة، كما يغني عبدالحليم.. وحدتي تقتلني، وأحتاج دعمه، وهو ليس هنا ولن يكون. كيف أعيده إلى ما كان؟ إلى شوقه وغزله ومحبته؟ كيف أنسيه تلك الكلمات الزائفة عن الصداقة التي هزمني بها في مكالمتنا الأخيرة؟ إنه يتصل بي.. وأنا مشتاقة ومحتاجة جدا لسماع صوته؛ لكنني لا أريد أن أسمعه وهو يذبحني ثانية مدعيا البراءة"

ضغطت الفتاة زر الحفظ، لتحفظ ما كتبت، ثم دخلت إلى ملف الأفلام، وقامت بتشغيل أحدها. أغمض عينه، وأخذ يسترجع كلماتها. لم يكن يومًا فضوليا، ولكن كلماتها حركت روحه. حديث الموت يحرك مشاعره دائما ويشفق على فتاة شابة مثلها منه. منذ ماتت أمه ورأى حال شقيقته وحزنها وصعوبة استعادتها تماسكها

بعدها وهو يفهم أن تعلق الفتيات بالأم أمر ضخم وفقدانهن لها زلزال لأرواحهن. فتح عينه ثانية، فوجد دموعها تنسال على خدها تفاعلا مع الفيلم الذي تشاهده، فمد يده بكيس مناديل صغير إليها، وسألها :

- انتي كويسة؟

شكرته على المناديل، قائلة

- معايا مناديل، شكرا

سكتت، وظلت تتابع الفيلم، وفقد هو رغبته في النعاس، وظل يتابع الفيلم معها أو بالأصح يتابعها هي. رن هاتفها، فتوقع أن يستمع لمكالمة مع ذلك الذي كتبت عنه، لكنها قالت :

- انا في الطريق يا حبيبتي.. هكون في البيت قبل ما ترجعي من الدرس.. ماما كويسة الحمد لله. ماشي يا حبيبتي.. هستناكي.. ماتتأخريش.. خدي بالك من نفسك.. سلام .

تمنى أن تحكي له أكثر.. أحيانا يحدث هذا، ويحكي الإنسان المتعب عن تعبه لشخص لا يعرفه ولن يراه ثانية، فيعطيه ذلك راحة كبيرة. لقد قرأ عن ذلك عدة مرات. حاول أن يجرها للكلام وترك الفيلم الذي يحرك أحزانها، فقال:

- طب ممكن احكي انا .

نظرت له متعجبة وغير مستوعبة، فشرح لها مبتسما في تودد..

- واضح ان انتي محتاجة تحكي وتفضفضي شوية، وواضح انك مش الشخصية اللي تآمن أو ترتاح لواحد ما تعرفوش وتحكي له.. فممكن بدل ما أقول لك احكي لي مالك، أحكي أنا وتسمعيني، واحتمال أنا ارتاح أو انت تتشغلي بحكايتي عن حزنك شوية

وعلى شفتيها شبح ابتسامة، قالت :

- اتفضل .

وبالفعل، بدأ عاصم يحكي لها عن ماضيه، دراسته، أسرته وبالذات شقيقته ودورها في حياته، صديقه الذي ترك البلد وسافر وراء حلمه.. عمله الجديد، وقلقه من أن يغرقه التحدي لإثبات ذاته في إدمان للعمل على حساب علاقاته الإنسانية. تحدث دون أن يحذر، ودون أن يخفي شيئا، حتى إنه استغرب نفسه جدا، فلم تكن عادته أبدا أن يكشف نفسه لهذه الدرجة أمام أي شخص .

سمعته بحرص. أعطته حسن السمع كمقابل ثمين لائتمانه لها على أسرار حياته. شعرت بارتباك نبرته وهو يحكي لحظات الألم، وبقلقه وهو يتحدث عن خوفه أن يفقد إنسانيته بسبب حماسه للعمل. ظلت تنصت وتتفاعل معه بإيماءة أو ابتسامة أو نظرة تشاركه الحزن، حتى انتهى عاصم من الحكي، فسكت، وألقى برأسه ناحية النافذة، يتابع الطريق .

تمنت سلمى أن تحكي هي الأخرى. حمدت الله أن رفيق سفرها لم يدعها للحكي مقابل ما حكى. تساءلت إن كانت مشاكلها وتحديدا علاقتها برحيم يمكن أن تبوح بها لأي إنسان، وهي التي لم تحك عنها أي تفاصيل لأقرب صديقاتها، حتى أن عهود لا تعرف اسم رحيم. استعادت ما حكى هذا الشاب، فتشجعت قليلا والتفتت إليه وهمت بالكلام، ولكنها وجدت الحزن يملأ ملامحه، وهو شارد في الأشياء التي يمر بها القطار فتبدو كأنها تفر إلى الخلف. كان عاصم يفكر في صديقه الذي سافر، وكيف أنه كان سيقنع أشرف بتوظيفه، ويعملان سويا .

رغم كل تلك الذكريات، فرتابة المشهد من الشباك، وانتظام صوت القطار، وإرهاق اليوم السابق جعلوا عاصم يغوص في النوم، بينما تابعت سلمى فيلمها، حتى اقتربت المحطة .

أغلقت سلمى حاسوبها ووضعته في الحقيبة، ولملمت حاجاتها، وتأكدت أنها لم تنس شيئا، ثم انتبهت أن عاصم غارق في النوم وأشياءه مبعثرة حوله. لكزته برفق لتوقظه، ففتح عينه غير مستوعب لوهلة أين هو، ومن هذه التي توقظه، ثم ابتسم لها واعتدل في كرسيه وهو يعتذر، فضحكت، وقالت:

- بتتأسف ليه؛ انت نمت مش أكتر.. ما عملتش حاجة غلط.

ضحك هو الآخر، ثم صمت لحظة يفكر، وهو ينظر في عينيها، ثم قال بصوت لم يدر هل سمعته أم لا:

- ويمكن أكون عملت حاجة صح

* * *

٢٥

الأسكندرية

كان اليوم مرهقا وشاقا، ورحيم يتابع عهود منذ تركته ودخلت للعروس مركز التجميل، ثم خروجها معها، وتصوير الزفة ثم الحفل، ثم صعود العروسين لمنزلهما. لاحظ عن قرب مدى عشقها لعملها، ومدى براعتها في التقاط الزوايا الأفضل. في النهاية صحبها في طريق العودة إلى بيتها، وودعها بعد أن شكرها على قبول صحبته لها في هذه التجربة الملهمة، قائلا إن له معها حديثا طويلا عن كل دقيقة راقبها فيها هذه الليلة .

كان الوقت متأخرا، لا يوجد في الشارع إلا قليل جدا من المارة. قبل أن تبدل ملابسها، كان رحيم يتصل بها ليطمئن أنها دخلت شقتها وأغلقت بابها جيدا. خرجت للشرفة ترد عليه وهي تضحك وتراقب عربة البطاطا التي تتحرك على كورنيش البحر في هذا الوقت المتأخر .

-محسسني اني طفلة وبابا بيتطمن عليها

ضحك رحيم، لكن عهود أخذها الشجن وهي تتأمل ما قالت. أين ما قالت من أبيها وتصرفاته معها؟ قاطع أفكارها ظهور سيارة

شرطة، أبطأت سرعتها بجانب عربة البطاطا ثم توقفت، ونزل منها فردان اقتربا من عربة البطاطا، فأخذا منها ما شاءا، وانصرفا إلى السيارة، فخبط بائع البطاطا كفًا بكف، ووصلها صوته في صمت الليل ففسرت أنه يقول "حسبي الله ونعم الوكيل". لم تكن سيارة الشرطة قد ابتعدت، وصوت الرجل كان عاليا لدرجة أنه وصلها في شرفتها، ولذا فبالتأكيد قد وصلهما في سيارتهما أيضا. طلبت عهود من رحيم أن يتصل بها حين يصل ليطمئنها، وأنهت المكالمة بسرعة، وجرت للداخل تحضر كاميراتها وتلتصق بجدار الشرفة الجانبي لتقلل احتمالية أن يراها أحد. كانت سيارة الشرطة قد توقفت مصدرة ذلك الصرير على الأسفلت، ثم رجعت بظهرها للخلف، حتى وقفت أمام بائع البطاطا مرة أخرى. نزل الضابط والأمين من السيارة، وراحت تراقب صورتهما المقربة على شاشة الكاميرا، اندفع الأمين نحو البائع، وصفعه على وجهه، فدفعه البائع وحاول أن يجري منه، فأخرج الضابط سلاحه ووجهه نحوه، فارتجف الرجل ووقف في مكانه، فصفعه الضابط مرة أخرى، ثم أشار لرفيقه، الذي جر الرجل من قفاه إلى داخل السيارة، تاركين عربة البطاطا ورحلا. أغلقت عهود كاميرتها، وجلست على أرض الشرفة لم تشعر ببرودتها ودمها يغلي بالغضب، وأخذت تبكي ولا تعرف ماذا تفعل .

اتصل بها رحيم ليطمئنها لوصوله بيت عمه، فوجدها منهارة بالبكاء. قصت له كل ما حدث، فقال لها :

- طب ماتعيطيش.. كل حاجة هتبقى تمام وبكرة هيخرج .

طلب منها أن يعود إليها، ولكنها رفضت. أقنعته أنها ستنام لينهي المكالمة، فأغلق هاتفه وهو يشعر بالقلق عليها. هل يبقى برفقة عمه، أم يعود إليها؟ إنها تحتاجه في هذه اللحظة أكثر من عمه أمين. دخل إلى عمه الشرفة التي لم يعد يفارقها، يسأله :

- هتحتاج مني حاجة الليلة دي يا عمي؟..

هز أمين رأسه نافيا، فقال:

- طيب أنا محتاج شوية حاجات للشغل، ومضطر أروح الشقة، عندك مانع؟

هز الرجل رأسه نفيا مرة أخرى، فالتقط رحيم معطفه ونزل يلبسه على السلم، ليسرع إلى عهود. اتصل بها، فلم ترد. كانت لا تزال جالسة في مكانها، في حالة يرثى لها. ما يحدث لهذا البائع الآن معروف وليس خاصا به وحده، بل يمكن أن يحدث لأي شخص آخر، وإن كانت هي. أتراه أبوها يفعل هذا بالناس أيضا، أم تراه قد يفعله معها هي نفسها لو أتته ضمن من يأتون بهم، فلم يهتم بأن يتبين ملامحها ويتذكرها؟ أخذتها أفكارها بعيدا في الحزن الأسود، فلم ترد على هاتفها الذي أضاءت شاشته باسم رحيم، حتى سمعت صوته يأتيها من الأسفل يناديها كالمجنون :

- يا تنزلي انتي يا اطلع لك انا .

أمسكت بالهاتف، وسارعت بالاتصال به..

- انت مجنون باين

كرر كلامه:

- يا تنزلي يا هاطلع لك

- مش قادرة أنزل ومش هينفع تطلع .

لم يعط اهتماما لكلامها.. دخل البناية وصعد السلالم مسرعا وهو يستمع إليها على الهاتف تشرح له أنه "مش هينفع". وقف أمام بابها وقال بصوت هادئ وأنفاس لاهثة :

- افتحي الباب

لم تصدق ما يقول. لن تفتح له، ولن يدخل منزلها مهما فعل، قالت :

- بطل تهريج يا رحيم .

- والله ما بهرج.. انا قدام الباب، افتحي .

قالت وهي تحاول التماسك كي لا تنفعل :

- امشي يا رحيم ..

قال بإصرار :

- مش همشي قبل ما اطمن عليكي .

* * *

وعلى شاطئ البحر، جلس رحيم وعهود في صمت، قطعه رحيم بأن أخرج هاتفه، وفتح متصفح الفيسبوك، وجاء بصورة وضعها

أمامها، لترى مدى إعجاب المتابعين بها. ابتسمت.. كانت صورة الغلاف الذي استخدم فيه صورة المركب. قالت له بنبرة هادئة تليق بهدوء البحر:

- شغلك عليها هو اللي خلاها تحفة كده.

قال وهو ينظر لعينيها مباشرة:

- الصورة نفسها اللي عظيمة عشان كده الغلاف طلع بالشكل ده.

أعطته الهاتف، فضغط بيده على زر الرجوع، ليعود للصفحة الرئيسية للفيسبوك. لمحت صورة وضعها أحد أصدقاء رحيم، فخطفت منه الهاتف تدقق في صورة بائع البطاطا التي كتب من وضعها أنه عثر عليه متوفيا وملقى على البحر، وتوجد آثار كدمات ونزيف في أنحاء جسده. صرخت عهود من هول المفاجأة، فنظر لها رحيم فاتحًا عينيه عن آخرهما وهو يسألها:

- هو ده؟!

قالت وهي تبكي:

- هو□ هو بياع البطاطا.. قتلوه.. قتلوه يا رحيم

يعرف جيدا أن هذا ليس بغريب عليهم، ويفعلونه دائما مع من يعارضهم، لكن هذا مجرد عجوز لا حول له ولا قوة. قال لها ليهوِّن عليها، رغم ثقته أنها لن تصدقه:

- أكيد في حاجة مش فاهمينها، مش معقول هياخدوه من الباب للطاق كده ويعذبوه لغاية ما يموت.

- لا يعملوها.. دي ناس قلوبها ماتت يا رحيم.. انا مش هسكت وهفضحهم .

شعر بالخوف عليها والقلق من حماسها، فقال :

- هتعملي ايه؟

قالت بعين يلمؤها التحدي والإصرار :

- هنزل الصور اللي معايا على النت.. لازم الناس كلها تعرف أن الراجل ده قبل ما يموت اتعذب بايد مين.. مش كل مرة الحق يضيع عشان فيه حد جبان .

لم يشعر بنفسه إلا وهو يضمها إلى صدره، ويربت على كتفها. كانت في حالة عصبية لا تستطيع فيها التعقل. كان يحاول تهدئتها، ولكنها قالت وهي تحاول منع دموعها:

- والله ما هسكت.. ولازم افضحهم .

قال :

- طب نفكر سوا ممكن نعملها ازاي.. لازم نفكر كويس لانهم ممكن يدوسوا علينا عادي .

قالت وهي تقفز من على السور إلى الرصيف :

- تعالى معايا .

تحركا ناحية البناية التي تقيم فيها، وصعدا السلالم بسرعة. كانت عهود تسابق الزمن، وتقفز إلى أعلى قفزا، ويتبعها رحيم وهو قلق مما هما مقبلان عليه. فتحت باب شقتها، ودلفت إلى الداخل، ووقف رحيم عند الباب، فالتفتت وسألته :

- مابتدخلش ليه؟

- انتي متأكدة؟

قالها رحيم لعهود وهو مندهش، فقالت في بساطة وإصرار :

- آه متأكدة.. ادخل .

عبر رحيم الباب إلى الداخل، وجلس على أريكة في الصالة، بينما اختفت هي داخل إحدى الغرف، وعادت في ثوان تحمل الحاسوب المحمول. جلست بجانبه وفتحت الجهاز، وبدأت في تشغيل "بروكسي" لتغيير مكانها الجغرافي، ثم إنشاء إيميل جديد، ثم عضوية جديدة به على الفيسبوك. وبينما هي تفعل كل ذلك، أخذ هو ذاكرة الكاميرا، فأوصلها بحاسوبه، وقام بعمله الفني لتغيير زوايا الصور وتقريبها، كي لا يتم التعرف على موقع التقاطها، ثم استخدم حيلة تكنولوجية لتغيير تعريف الصورة كي لا يصل أحد إلى الكاميرا أو الحاسوب المستخدم في التقاطها ومعالجتها.

بعد أن انتهيا، دخلا بالعضوية الوهمية على جميع الصفحات التي نشرت الخبر، ووضعا الصور في التعليقات، ليرى الجميع أين كان هذا البائع قبل أن يموت، ثم جلسا سويا يتابعان ردود الأفعال، بينما

تتألق نظرة التحدي في عيني عهود. وفي أقل من ساعة، كانت الصور تنتقل بين النشطاء وصفحات الجرائد على الفيس بوك. في أقل من ساعة، أصبح بائع البطاطا هو حديث الجميع على صفحات التواصل الاجتماعي، وصولا إلى المواقع الأجنبية لتداول الأخبار

اغلقت عهود حاسوبها، وتنهدت ارتياحا، فأغلق حاسوبه أيضا وابتسم لها. أشارت له علامة النصر، ثم خرجت إلى الشرفة، وتبعها رحيم، الذي مازال مندهشا من كل شيء، بدءًا من إصرارها على فعل هذا، وانتهاء بوجوده في منزلها.

- خايف عليكي برضه يا عهود رغم كل الاحتياطات اللي عملناها

قالت:

- مش هيعرفوا يوصلولي.. خلاص اللي بينشر الصور دلوقتي على السوشال ميديا هي الصفحات الكبيرة مش انا.

لم يطمئن قلبه كلامها، وظل قلقا عليها، فمهما احتاطا في كل خطواتهما، فكلاهما ليس متخصصا في تكنولوجيا الاتصالات.

***

٢٦

القاهرة

جلس عاصم على كرسيه في القطار العائد إلى القاهرة، تاركا المهندس فادي ليكمل الإجراءات الروتينية قبل بدء العمل في الموقع. ٤٨ ساعة ما بين سفره قدوما وعودة، لم يسترح فيها إلا القليل، ولم يستمتع بالأسكندرية، لكنه قرر عدم ترك شقيقته ووالده أكثر من ذلك .

بعد أن استقر في كرسيه، أغمض عينه وابتسم وهو يتخيل أن يجد نفس الفتاة التي جاورته في رحلة الذهاب ترافقه في رحلة العودة. أحس أنه لا يريد النوم، فلو نام هذه المرة لن يجدها لتوقظه. قرر أن يذهب لكافيتيريا القطار ليتناول فنجانا من القهوة يحسن مزاجه. طلب قهوته، وجلس على البار ينتظر، ففوجئ بمن تقبل عليه لتجلس على الكرسي المجاور دون أن تنتبه له. طلبت ما أرادت، ثم جلست تنتظر، فقال لها ضاحكًا:

– طيب أنادي لك ازاي وانا ماعرفتش اسمك المرة اللي فاتت؟

نظرت له نظرة يملؤها الاندهاش، ثم ضحكت عاليا، مما جعل الوجوه حولهما تنظر إليها مستنكرة، فهز رأسه لها بمعنى "سيبك منهم" فابتسمت ابتسامة واسعة وقالت:

- انا لما بشوف الصدف دي في الافلام مابصدقش.. ماكنتش أعرف انها بتحصل بجد .

رد في مرح :

- مابتفرجش على أفلام. المهم، تشربي ايه .

ضحكت ثانية، ولكن في هدوء، وقالت:

- مانا لسه طالبة الشاي قدامك يا عم

ابتسم مسرورا لضحكتها ولتبسطها معه. كلمة "يا عم" وقعت في أذنه كأنها أجمل لقب سمعه في حياته. قال لها:

- طيب أنا بشكرك بقى على الصدفة الحلوة دي

ردت بنبرة صادقة:

- انا اللي بشكرك.. من ساعة ما شوفتك وانا بدأت أفكر في نفسي وفي حياتي بشكل مختلف .

ابتسم وسألها متضاحكا :

- تشربي ايه بقى؟

ابتسمت وقالت وهي تنزل من على الكرسي، وتأخذ كوبها الورقي في يدها :

- أنا هرجع مكاني بقى .

قال وهو يمسك برسغها :

- لا مكانك ده ايه.. لسه هنتكلم

جلست مرة أخرى، كأنها كانت تنتظر إصراره. صمتت قليلا ثم رفعت عينيها عن الكوب، وقالت له :

- انا فعلا عايزة أحكي لك حاجات كتير.. الصدفة الغريبة دي يمكن تكون هدية من ربنا ليا علشان أحكي وانا متطمنة.. بس برضه خايفة أقابلك تاني بعد ما تسمع الحكاية□ مش عايزة أسمع رأي .

ابتسم وهو يرتشف من القهوة القليل، قال :

- ما هو احنا لازم هنتقابل تاني، ده بقى قانون خلاص.. أنا مش جايب حاجة من عندي، انتي شايفة بنفسك

ابتسمت ولم تعلق، فسألها:

- انتي رايحة القاهرة ولا راجعة القاهرة؟

حكت له نصف الحكاية. ربما لو تقابلا مرة أخرى حقا تكمل له قصتها مع رحيم .

قاما يتمشيان معا، واستأذنا من جاره في الكرسي أن يبدل مكانه معها، فابتسم لهما ولم يمانع. جلسا متجاورين مرة أخرى، ولكن هذه المرة هي من تكلمت، فأخبرته أنها من الأسكندرية، وتكلمت عن نفسها وهواياتها وعملها.. حكت له عن ظروفها وظروف أسرتها، وعن مرض والدتها وقصة نقلها للقاهرة للعلاج، وكيف أنها توزع وقتها بين المستشفى وشقيقتها التي لا تستطيع البقاء معها في القاهرة لظروف دراستها. أشفق عليها من كل هذا المجهود. ذكرته بنفسه، فابتسم. تابعت هي غير ملتفتة لابتسامته:

- انا بحب ماما قوي.. مش هقدر اعيش من غيرها.. يارب تبقى كويسة وترجع معايا البيت بقى.

لم يدر هل يتمنى لأمها الشفاء، أم يتمنى أن يطول بقاؤها في المستشفى أياما أخرى. استسخف تفكيره، فغيّر الموضوع وقال لها:

- بصي انا ماليش في القراية قوي.. بس أختي هي اللي بتعشق الروايات.. كده أول نسخة من كتابك هاخدها لأختي.. وأكيد يعني هبص فيه بصه كده.

ابتسمت شاكرة له تشجيعه، ثم تكلما في أشياء كثيرة أخرى، إلا رحيم وحكايته. جرى بهما الوقت، حتى فوجئا أنهما قد وصلا إلى محطة مصر، فعرض عليها أن يوصلها للمستشفى، فرفضت، فلم يلح عليها، ولكنه طلب منها رقم هاتفها، فاستحت أن ترفضه أيضا، فأملته إياه، فرن عليها، ليصبح رقمه معها أيضا، وأكد عليها أن تتصل به لو احتاجت أي شيء في القاهرة. قال لها:

- ما تتكسفيش تطلبي أي حاجة.. أنا كمان لو احتجت حاجة في اسكندرية هاتصل بيكي على طول

افترقا دون وعد بلقاء جديد.. كانت سلمى لا تفهم تماما إن كانت سعيدة أم فقط مرتاحة.. هل تريد حقا ألا تلقاه ثانية، أم أنها تصدقه أن لقاءهما صار قانونًا؟.. في كل الأحوال ها هما قد افترقا بالفعل، وسينشغل كل منهما بحياته.

لكن ما لم تكن تعلمه سلمى أن عاصم كان قد قرر أن يزور أمها في المستشفى.

***

٢٧

الشرقية - ٢٠١٦

سادت حالة الهرج والمرج بين الجميع في أقسام الشرطة، بعد أنباء وإخباريات عن خبر وفاة بائع بطاطا في الأسكندرية. هناك الكثير من المحتجزين بدون أي سبب في زنازين الأقسام، عموما، وهنا في هذا القسم تحديدًا تعود المأمور على هذه الظروف، وكان يؤمن نفسه باستمرار. لكن شيء هاجسًا عجيبًا كان يصر أن يقلق وحيد هذه المرة.

خرج من مكتبه مستشيطا، يردد كلمات وسبابات غير مفهومة، والجميع يحاول الابتعاد عن طريقه، حتى مراد. نزل وحيد السلم، حتى وصل إلى المقبرة التي تضم شباب هذه المدينة وقراها، وأمر عساكره بفتح الباب.

وقف ينظر للشباب نظرة غاضبة للشباب المتجزين، ثم صاح فيهم:

- حد له نفس يخرج من هنا؟

صمت الجميع متفاجئين وغير فاهمين ما يحدث، هل إذا أجابوا سيخرجهم فعلا، أم أنه ينتظر إجابة ما ليأخذهم إلى حفلة تعذيب. صاح فيهم ثانية:

- اللي يخرج من هنا يحاول مايرجعش تاني أبدا.. مفهوم؟

هرعوا يقفون صفا واحدا، نظر إليه وحيد فأخفى رجفة اعترته، من مدى تشابه الوجوه التي طمس التعذيب ملامحها فحلت محل تفاصيلها تورمات وكدمات، بدوا معها كأنهم مخلوقات مختلفة من كوكب آخر. كان المنظر مهيب ومقزز إلى أبعد مدى. كان بين المحتجزين هنا شباب مختفين منذ مدد طويلة، وكان من بينهم سيف، الشاب الذي حسبه أهله قد مات، بعد أن مرت كل هذه الفترة من الاختفاء .

لم يصدق سيف أنه خرج.. كل من لم خرجوا لم يكونوا يصدقون.. ولم يصدق وحيد أنه فعل هذا .

وبينما أولئك العائدون للحياة يلمسون الهواء الطازج من جديد، فتستغربه جلودهم وتقشعر، وبين تشوهات وجوههم بالكدمات ترتسم ابتسامات لها نكهة الجنة، كان وحيد يعود إلى مكتبه وهو يجز على أسنانه متوعدًا من أجبره على فقدان لعبه التي أدمن اللهو بها. ارتمى على الكرسي وهو يقول بصوت جهور :

-عشان ظابط غبي ابن وسخة مش عارف يتعامل صح مع الغجر دول .

حاول مراد تهدئته، لكنه غاضبا قال :

-يعني ايه مش عارف مايموتوش وهو بيعذبه.. الظباط اللي طالعين جداد دول شوية بقر .

كان وقع الكلام مؤذيا على أذن مراد، فهو من الصفوة المحترمين في هذا النظام، والذين يعانون من عدم الاندماج مع زملائهم. نظر وحيد لمراد وقال في ملل :

-عايز القسم اليومين دول مافيهوش غلطة.. اللي يغلط هشده بنفسي .

خرج مراد ليتابع كل شيء بنفسه. كان يحدث نفسه أن ليت القسم يظل "مافيهوش غلطة" دائما وليس فقط عندما يتسلط عليهم "كرباج" الفضيحة. زفر يائسا وهو يطمئن نفسه بأن القدر يسبب الأسباب لينقذ المظلومين من يد الظالم ولو بعد حين، فمن كان يصدق أن أم سيف سترى ابنها ثانية، ليهوِّن عليها موت أخيه.

أخرج وحيد هاتفه، لا يعرف لماذا أراد أن يتصل بابنته الآن، وسط كل هذا الهرج، ورغم أنه يعلم يقينا أنها لن ترد عليه. كرر الاتصال مرارا، ولم تجبه. كانت ترى الهاتف، فتزداد إصرارًا على عدم الرد. لماذا يصر على الاتصال من وقت لآخر، فيذكِّرها بما فعله بأمها؟ تتمنى أن يبتعد ويختفي عنها سنوات طويلة، فربما مع اختفائه طويلا تستطيع أن تمنحه التسامح الذي يأمرها به المسيح مع من يسيئون .

***

دخل سيف إلى البناية التي يقطن بها، فقابلته نظرات التعجب من الجيران، كأنما رأوا ميتا قد صحا. عرف سيف أن أمه ماتت كمدًا. حكى له جيرانه كيف مات أخوه، فبكى بشدة، حتى ربت عليه أحد أصدقاء أخيه وقال له:

-يا سيف انت جربت بنفسك.. يعني عارف ان موته كان رحمة له من اللي انت شفته

أضاف آخر:

-أخوك مات شهيد يا سيف.. مات غريق ومغدور.. يعني هو في الجنة، يعني هو اللي لولا الجنة مافيهاش زعل كان عيط علينا

كان سيف يفهم كل هذا، لكنه غير مصدق. غير مصدق أنه خرج من هذا القبر بعد كل هذه السنين.. غير مصدق أن كل هذا حدث وانتهى وهو لا يعرف له سببا حتى الآن. لا يصدق أنه لم يودع أمه، وأنها ربت رجلين لكي يحمل نعشها الأغراب .

لم يعد هناك ما تخافه أو تخاف عليه يا سيف. الآن لم يعد سيف يريد إلا أن يثأر لنفسه، ولأخيه، ولأمه، ولكل من شابههم.

***

٢٨

الأسكندرية

كان وجود رحيم في منزل عهود بمثابة نقلة كبيرة في علاقتهما، أو في صداقتهما على حد وصف عهود لهذه العلاقة. رحيم لا يأخذ توصيفها بجدية، فهو يحبها، ومتيقن أنها ستحبه؛ إن لم تكن تحبه فعلا، ولكنها معاندة. يعرف أن هناك ما يمنعها من قبول ذلك في دينها، وفي أعراف المجتمع الذي يعيشان فيه، لكنه مصر أن يحبها وبقوة. تطورت علاقتهما كثيرًا في اليومين الأخيرين. بعد أن غادر منزلها، اتصل بها وطلب منها أن يدعوها إلى العشاء عنده، الليلة المقبلة. رفضت، فألح عليها، وأخبرها أنه يريد أن يريها ما لم يره أحد ولم يعرفه أحد عنه. كان يريد أن يصرح بحبه لها، ويعرض عليها الزواج، ويتحمل عواقب ذلك أمام الجميع .

استجابت لإلحاحه، وفتح لها بابه، فدخلت وهي مترددة، لكن مرحه وحماسه رسما على وجهها ابتسامة جميلة. كان يسبقها من غرفة إلى غرفة، لتعرف عن حياته أكثر، حتى تبقت غرفة واحدة، سأل نفسه مرار إن كان سيريها لها أم لا. "الصومعة".

دخلا الصومعة سويا، فهمس في أذنها "بحبك"، فابتعدت قليلا وقالت له :

- يا رحيم سبق وقلت لك مابحبش كده.. بطل جنان بقى .

قال وهو ينظر في عينيها مباشرة :

- اقسم بالله ما بهزر.. انا بجد بحبك .

قبل أن تجيب، سمعا صوت هرج ومرج في الشارع، فتحركت عهود للشرفة لترى ماذا يحدث. كانت عربات الأمن تملأ الشارع، ونزل العساكر من السيارات المتراصة أمام بناية عهود، وقاموا بالانتشار. تجمدت عهود من الرعب، وأحاطها رحيم بذراعه في قوة وهما يتابعان ما يحدث من الشرفة.

لقد سبق وقال لها إنهما مجرد هواة، ولن تفلح محاولتهما لتمويه الصور في الهروب بهما من المواجهة .

كان ما حدث أن خبراء الداخلية استطاعوا تحديد مكان التقاط الصور، ووصلت التحريات إلى تحديد شخصية عهود وحيد، ابنة مأمور قسم كفر صقر بمحافظة الشرقية. فأرسلوا إلى والدها ليخبروه بما حدث، في نفس الوقت الذي تحركت به قوات الأمن لمداهمة مسكنها.

لم تصدق عهود كل هذا الرعب. كانت قد تركت كل شيء في شقتها، حتى هاتفها. سيجدوا كل شيء عنها في يسر شديد. ضمها رحيم إلى صدره وطمأنها، وقال :

- ماتخافيش.. كل حاجة هتبقى تمام.

قالت في ذهول:

- تفتكر اتصل بـ بابا؟.. هو الوحيد اللي هيعرف ينجدني من المصيبة دي.

سألها عن والدها، الذي لم يعرف عنه شيئا من قبل، فقصت له حكايته، وطبيعة عمله. فكرا معا في كل الاحتمالات.. كان من الغباء أن يظنا أنهم لن يصلوا لرحيم أيضا قريبا جدا، وكان الأمل الوحيد لعهود، على الأقل في ضمان معاملة منصفة، هو في اللجوء لأبيها.

اتصلت به من هاتف رحيم، فصرخ بها يسألها عما فعلت بالضبط. كادت تغلق الخط، ولكنها كانت تعرف أنه أملها الوحيد في هذه الأزمة. صرخت به:

- هتنقذني ولا هتعمل زي ما عملت مع ماما؟

صرختها صدمته، وقبل أن يرد عليها، كانت القوات تقتحم شقة رحيم وتأخذ منه عهود وتتحرك بها إلى القسم. لقد كانوا يراقبون هاتف والدها وعرفوا مكانها.

حمد رحيم ربه أنهم لم يأخذوه معها، فهكذا يمكنه التحرك لمحاولة إنقاذها بكل سبيل. في أقل من نصف ساعة كان قد وصل هو وإبراهيم إلى مديرية الأمن، لكن قابلهما النفي التام لوجود هذا الاسم لديهم. جن جنون رحيم، لكن إبراهيم جره إلى خارج المبنى،

ولكنه رفض تماما أن يعود إلى بيته ويتركها في هذا الجحيم، وجلس على الرصيف ينتظر وصول والدها، فهو الأمل الوحيد لها الآن، رغم كل ما بينهما من مأساة كبيرة.

لم يمر وقت كثير، حتى وصل وحيد إلى المديرية، وترجل من سيارته ودلف إلى الداخل محاولا فهم وضع ابنته. كان الأمر أكبر منه ومن رتبته، فعبث هذه الطفلة قد مس الوزارة بكاملها، ولابد أن تكون عبرة للمجترئين على حماة الوطن. حاول وحيد أن يتحدث مع من كانوا دائما راضين عنه ويشيدون به، لكن كان كلام قائده واضحا وصريحا:

-لولا أنك مرضي عنك وتاريخك مشرف، كان زمانك بتتحاسب معاها. مالكش دعوة بالموضوع يا وحيد، وهاحاول أضمن لك ان بنتك هتتحاسب على قد قضيتها بس□ ما تخافش مش هنعمل فيها حاجة وهنراعي انها بنتك، انت برضه لك خاطر كبير يا حضرة العميد.

في يوم واحد، كانت عهود قد عرضت على النيابة، وحولت إلى القضاء وتحددت لها جلسة لتحاسب على شيء ما، لا علاقة له بالحقيقة. لم يصدق رحيم أن لا أحد يستطيع أن ينفعها أو يدافع عنها، حتى أبوها الذي هو منهم، بل ومن أخلص رجال نظامهم. هكذا الدولة في كل زمان ومكان، ما أسهل أن تلتهم مناصريها

للخروج من أي أزمة. إن هذا ما يجعل الدولة شيئا والوطن شيئا آخر.

ظل رحيم أسبوعا كاملا، يبيت في الشارع، ويتنقل مع عهود أينما ينقلونها. كان يظل نهاره محاولا زيارتها بأي طريقة، ولو بدفع رشوة للنوبتجيين، فلم يفلح إلا في رؤيتها من بعيد، ولكنها لمحته وابتسمت له، فحسدها على قوتها، إذ كان يشرف على الانهيار قلقا عليها .



٢٩

قبيلة الرحايمة - ٢٠١٦

لن تستطيع على الإطلاق أن تصدق أنك الآن في قبيلة بدوية تعيش في الصحراء بلا معونة من الدولة التي تضمها على الخريطة فقط. لقد تحولت من قبيلة تعيش على الزراعة والعطارة، لبلد صغير متقدم، يعيش على كل ما هو صحي ومتقدم، ويقدم لأهله رعاية عالية، ويحقق اكتفاء بكل موراد القبيلة. والغريب، أنها صارت أقوى من تواجهها الدولة. لقد أصبح شبابها هم حكام القبيلة، رغم أن العرف والعادات والتقاليد مازالت مستمرة، لكن بلمسة تكنولوجية متقدمة. ومع كل ذلك، ظل الجميع مرتضين أن عرف القبيلة بمثابة عهد وسيف على رقبة الجميع .

اجتمع أهل القبيلة في الساحة الكبيرة، يتوسطهم المأذون والكبير وشاب من شباب القبيلة وفتاة تحمل من نور القمر الكثير. سأل المأذون العروس :

– من وكيلك .

قالت :

- الكبير هو وكيلي .

استغرب الكبير من فعلتها وقال :

- يا بنتي انا أشهد على جوازكم.. انما وكيلك ابوكي .

قالت وهي تحاول منع دموعها :

- انت ابويا يا كبير، انا يتيمة من غيرك.. ومن غير وجودك في حياتي ماكنتش هشوف يوم زي ده.

تحركت ناحيته، وقبلت يديه، وأومأ أبوها مؤيدا. ذكرته بقصة مجيئها هي ووالدتها إليه هروبا من بطش عائلتها وخوفا منهم. ذكرته بحمايته لها ولوالدتها، ورعايته لهما واهتمامه بهما. ابتسم الكبير للذكريات الجميلة، وأومأ موافقا أن يكون وكيلها .

ووسط الزحام والضجة، والتفاف الجميع حول العروسين، وقف أمين وابن اخيه أمام الباب الرئيسي للسور الذي يحمي الواحة ويحيطها بشكل دائري، وكأنه يعزل القبيلة عن الدنيا. أوقفهما الحرس المدججين بالسلاح، فتطلع رحيم إلى السور وتأمينه المسلح من كل جهة في دهشة وإعجاب. قال أمين للحارس الأقرب له، بعد أن ردت له روحه باقترابه من الواحة الوطن، فانتعشت ذاكرته التي عرفت قوانين القبيلة جيدا:

- وافدين.. عايزين الكبير يابني .

سار الحارس أمامهما حتى اقترب من الكبير المشغول في حفل الزفاف. كان أمين ورحيم متوترين للغاية، فأمين خائف من رد فعل أخيه، ورحيم الابن لا يدري ما ينتظره، وكل ما يقلقه هو مصير عهود. كان الكبير يتابع الشباب وهم يتراقصون على نغمات الموسيقي والبنات تصفق لهم وتشجعهم، يحتفلون جميعا بعد أن أنهى المأذون مهمته وربط بين قلبين برباط السعادة المقدس. كان الكبير يتابع نظرات العروس لزوجه في سعادة، حين وقعت عينه على ابنه من بين الجميع. لم يصدق ما رأى.. لم ير ابنه منذ سنين، لكنه لم يكن ليخطئه. قام من مكانه، وتحرك تجاهه، فأسرع أمين من خلف ابن أخيه، وكأنه يحاول أن يحول بين رحيم وبطش الكبير به. استمر الكبير في التحرك ناحية ابنه، ثم أخرج مسدسه من جلبابه، ففزعت عينا أمين لوهلة، قبل أن يجد أخاه قد رفع يده للسماء وضغط على الزناد ليصمت الجميع. تنفس أمين الصعداء، بينما تجاوزه الكبير ومد يده يجذب ابنه بقوة، ليضمه إلى صدره كأنه يضم الدنيا بأسرها، وقد انهمرت دموعه أمام جميع أبناء القبيلة، حتى إنه لم يستطع الاستمرار في الوقوف وجثا على ركبتيه يحمد الله ويزداد بكاءً. أخبرت إحدى الصبايا زوجة الكبيرة بما يحدث، فهرعت إلى زوجها تتوكأ على بنات القبيلة اللاتي أسرعن لمساعدتها. حين اقتربت، لمحت عيناها المتعبتان زوجها وهو جالس على الأرض ويجلس بجواره شاب يشبهه تماما. دب النشاط في روحها، فصاحت تناديه، فهرع إليها، فضمته إلى صدرها الواهن وأخذت تقبل وجهه وكفه وتربت على صدره وهي لا تكف عن البكاء، حتى خاف عليها من الانهيار .

لم يظهر الكبير ضعيفا أمام القبيلة قبل هذا اليوم. لكن لم يعتبر أبناء القبيلة ما حدث ضعفا، فقد نوَّر العلم عقولهم ووعيهم. خطف الأنظار والأسماع صوت قاطع المشهد، جاء من أمين الواقف بجوار الكبير، وهو يقول بصوت عالٍ :

- أنا أمين.. شقيق كبيركم.. اللي أخدت منه ابنه من سنين وهربت بيه بره القبيلة.. حد فاكرني؟ أنا عاودت لسببين، أولهم لأنيماينفعش أموت بره القبيلة واندفن في ارض غيرها.. وتانيهم لأن رحيم ابن اخويا محتاج لكم .

مسح الكبير دموعه، ثم هب واقفا. صاح بأخيه في قوة:

- انت فاكر ان قانون الرحايمة فيه استثنا لأي حد حتى لو كان أخو كبيرها؟!

سارع رحيم بمقاطعته قائلا:

- لو حد يستاهل الموت يبقى انا يا ابويا.. عمي مايستاهلش يموت كده .

بدأ الهرج والمرج بين الجميع، وبدأت كلمات الرجال تصل لأذن الكبير أن يسامحهم ويغفر لهم. حار فيما يجب عليه أن يفعل.. هل يغفر لهم وهذا ما يريد قلبه، أم ينفذ عليهم قانون القبيلة ويقتلهم لهروبهم منها؟ لم يرد الكبير فتابع الابن :

- يا ابويا لولا اللي عمي عمله ماكانش بقى حال الرحايمة كل الخير اللي أنا شايفه دلوقت.. عمي تعب كتير في حياته وشاف

كتير وواضح أن اللي عمله كان سبب في خير كتير لأهل الرحايمة كلهم.. سيبه يعيش اللي باقي جنبك هنا.. عشان اتطمن عليه .

تحرك رحيم ناحية أبيه، وقبل يده ورأسه أمام الجميع، وهو يترجاه أن يسامحهما معا. كاد رحيم الكبير أن يعود للبكاء، لكنه تماسك، وأشار للشباب أن يعودوا لاحتفالهم، ثم انسحب إلى داره ليختلي بنفسه ويفكر في كل هذه المفاجآت.

عاد الحفل أبهج مما كان، فرحا بعودة رحيم وأمين، وتبع رحيم أباه ووراءه أمين والزوجة العجوز يخطوان في بطء. اتخذ الكبير مجلسه الذي اعتاده، فوجد رحيم يدخل عليه، فكاد يصرفه، لكنه لم يستطع. جلس رحيم أمام أبيه صامتا، وهما يتبادلان نظرات الحنين وشوق سنوات طويلة، حتى دخل عليهما العجوزان الآخران، فجلست زوجته بجانب ابنها، وجلس أخوه بعيدا قليلا في صمت وانكسار.

- انت عايزني اسامحك يا أمين على النار اللي ولعتها في قلبي السنين دي كلها؟!

نظر لعين أخيه مباشرة بغضب وتابع :

- تاخد ابني مني وهو عيل ترجعهولي طولي وعايزني اسامحك؟.. طب اسامحك ازاي وانت حرمتني أن ضهر ابني يكون من خيري؟

ربت رحيم الابن على كتف والده وقبل يده مرارا ليحنن قلبه. اقترب أمين من أخيه، وقبَّل كتفه، ففتح الكبير ذراعيه، ليتعانق الشقيقان ويبكيان معا، حتى تباعدا أخيرا والكبير يضاحك أخاه:

- كبرت يا أمين وبقيت عجوز.

رد أمين وهو يمسح دموعه:

- ضهري انحنى من بعدك يا كبير.

طلب الكبير طعام الاحتفال، ليأتوا به إليهم في مجلسهم، فأكلوا معا بعد اغتراب طويل، وأخذ كل منهم يحكي ما لديه للآخرين. قال الكبير:

- عارف يا أمين.. انا دورت في مصر كلها عليكم.. وكنت مانع رجالتي يدوروا عليكم في اسكندرية لأني متاكد انكم هناك.. عقلي كان بيخليني ابعت وراكم الرجالة عشان يرجعولي برقابيكم وقلبي كان بيضللهم عن مكانكم.

كان أمين يعرف هذا الكلام جيدا. يعرف أن أخاه يفهمه تماما، وأنه أمامه صفحة مكشوفة، وهو لم يخف عنه يوما انبهاره بالأسكندرية وعشقه لبحرها. قال رحيم مغيّرًا دفة الحديث:

- محتاجلك يابا..

لامس كف الأب وجه ابنه في حنان وقال:

- في ضهرك يابني.. خير.

قص الابن الحكاية لأبيه، من أولها لآخرها. أخبره أن فتاته لابد أن تخرج بالقوة، لأن القضية أصبحت قضية رأي عام وأحرجت الداخلية. أخبره كذلك أن والدها رغم سلطته لم يستطع إلا أن يؤمِّن لها بقاءها بالداخل بدون تعذيب. نظر الكبير لأمين لائما، وقال لابنه :

- وطبعا عمك أمين اللي قالك اني هقدر اخرجهالك

نظر أمين وابن أخيه لبعضهما البعض، ثم قال أمين :

- البت مظلومة يا كبير.. ودي مش أي بنت.. دي حبيبة ابنك .

نظر الكبير لشقيقه وابتسم، قال :

- أنا عملتها مرة واحدة يابني لاجل عمك أمين.. وهكررها المرة دي لاجلك.

أخذ نفسا عميقا، ثم أردف :

- بس اوعدني يابني ان دي هتكون آخر مرة نعرض الرحايمة للخطر. أنا كبرت، وكلها شوية وتبقى مسئول عن كل الخلق دي، وحقهم عليك انك ما تجازفش بيهم علشان نفسك، ده انت لزما تبدِّيهم على نفسك يا رحيم.

وعد رحيم أباه بما أراد، فحكي الكبير لابنه أنه منذ ٣٥ عاما وضع القبيلة في خطر بسبب زوجة أخيه الأولى، تلك الفتاة التي رآها أمين في الحضر، ولم يغمض له جفن حتى طلب من أخيه أن

يتزوجها. وبعد أن أقنعه بها، وذهب معه لخطبتها، وجدها خلف القضبان بسبب جريمة لم ترتكبها. لم يهدأ له بال إلا بعد أن خرجا بمجموعة من القبيلة، بكل عدتهم وسلاحهم، وأخرجوها من السجن ليتزوجها في أمان الرحايمة.إنها من حزن أمين بعد وفاتها، ولم يتزوج بعدها أبدا، إلا بعد أن فقد ذاكرته، أو ادعاءه ذلك ليقنع نفسه أنه يحتاج من ترعاه .

قال أمين لأخيه إن تحية أيضا قد ماتت. حين بكاها كان يبكي أشجان وتحية معا. تحية كانت شقيقة أشجان، التي كانت تعرفه جيدا وتعرف قصته مع أشجان، وكانت تعرف أنه لم يفقد الذاكرة وإنما أراد أن يعيش مع من حملت شكل وصفات أختها، ورضيت بذلك. ربت الكبير على كتف أخيه، يواسيه في فقد حبيبته مرتين، ثم التفت إلى ابنه وقال:

- اللي يريده ربنا يكون يا بني، قوم نام دلوقت



٣٠

القاهرة

وقف عاصم عند النافذة ولم يدخل، عندما لمحها تصلي. حين انتهت سلمى من صلاتها، طرق الباب، ففتحت سلمى، لتفاجأ به أمامها. دخل عاصم وصافحها، وأعطاها الورد الذي أحضره لوالدتها، ثم جلس بجانب والدتها التي كانت بحالة جيدة، وقد استيقظت على صوتهما، فعرفتها سلمى على عاصم، فابتسمت والدتها له بود. دخل الطبيب الغرفة، فخرج عاصم، تاركا سلمى تساعد أمها لرفع ملابسها، ليكشف عليها الطبيب. انتهى الطبيب من الفحص، وبدأ يكتب ملاحظاته في ملف المريضة، فخرجت سلمى تنادي عاصم للدخول وتعتذر له، فلحق الطبيب بهما في الخارج، وقال لها:

- والدتك بقت أحسن بكتير.. ممكن تروحوا بقى في أي وقت .

أشرق وجهها فرحا، وسألته بنبرة يملؤها السعادة :

- بجد يا دكتور؟

ابتسم الطبيب وهز رأسه بالإيجاب وغادرهما، فنظرت سلمى لعاصم بفرح وقالت :

- وشك حلو قوي علينا.. ماما خلاص هتخرج .

ابتسم ولم يرد، فقالت :

- هخلص كل حاجة هنا بقى عشان نرجع اسكندرية .

قال لها قبل أن تندفع لتخبر والدتها :

- استني بس.. عايز قبل ما تسافروا أعزمك على الغدا.. عايز أقولك حاجة مهمة .

- حاجة ايه؟.. طيب ما ينفعش تتقال هنا؟

هز رأسه نافيا، فقالت في تردد :

- تمام.. بس أخلص كل الورق اللازم واتصل عليك ونتقابل .

قال عاصم وهو ينظر لعينيها مباشرة :

- لأ.. هاستنى معاكي تخلصي كل حاجة وبعدين نتحرك سوا .

لم تستطع التهرب منه. اتصلت بقريبهم تخبره بالجديد وتشكره كثيرًا، ثم زفت الخبر لأمها، فتنهدت السيدة في راحة، فأخيرًا ستعود إلى بيتها، وأخيرًا ستسقر وابنتيها أمام عينيها مطمئنة عليهما. لملمت سلمى أغلب حاجات أمها في الحقيبة، ثم قررت أن تستريح قليلا قبل أن تكمل، فخرجت مع عاصم إلى حديقة المستشفى، فجلسا في

الشمس والخضرة وهو يتأمل وجهها الحسن. جاءها اتصال قريبها يخبرها بانتهاء كل الأوراق اللازمة للخروج، وأن التكاليف مدفوعة حتى الغد، لأن سيارة الإسعاف الخاصة بالمستشفى، والتي ستقلهما إلى الأسكندرية غير متاحة اليوم. شكرته سلمى على كل ما فعل، ودعت له كثيرا، ثم قالت له إنهم بانتظاره والعائلة ليمضوا معهم إجازة جميلة في الأسكندرية وأنها تعده أن تخطط لأبنائه أسبوعا رائعا بها. عادت إلى أمها، فأخبرتها بالتطورات، ثم استأذنتها أنها ستذهب مع عاصم للغداء، ولن تتأخر، فلم تمانع أمها، وأوصت عاصم بها خيرًا .

ذهبا معا إلى مطعم شهير في وسط البلد. تسمع دوما عن "وسط البلد"، لكنها كانت أول مرة تراها. أعجبتها المباني القديمة المزخرفة كثير،ا لكن الزحام خنقها.

- القاهرة زحمة قوي .

- زحمة بس دافية جدا.. انا بحب القاهرة جدا خصوصا بالليل .

كانت الشمس أشرفت على الغروب. تابع عاصم :

- ساعة كمان وهتشوفي روعة وسط البلد. تحبي تاكلي ايه؟

قالت :

- يا عاصم السؤال ده مايتسألش لبنت.. شاروما طبعا .

ضحك ثم قال بهدوء :

- دي أول مرة أخرج مع بنت غير أختي هايدي.. وهي برضه بتعشق الشاورما. بس هنا في كباب مش شاورما للأسف.

ضحكت وقالت وهي تعتدل على كرسيها المقابل له:

- شكلك بتحب اختك قوي..

هز رأسه وطلب لهما الكباب والفتة التي يشتهر بها المطعم، وانتظرت هي حتى ذهب النادل فسألته:

- ها.. كنت عايزني في ايه بقى؟

بادرته بسؤال كان يريد أن يجيب عليه بكلامه الذي سهر أمس ليرتبه داخل رأسه، وقد تاه الآن منه. لم يعرف ماذا يقول لها.. هل يخبرها أنه يريد أن يظل بجانبها ما تبقى من عمره؟ كانت سلمى بالنسبة لعاصم طوق النجاة الذي ظهر له من العدم. صدفة غريبة، تمسك بها عاصم ووعد نفسه أنه لن يفرط فيها. قال:

- عايزك تفضلي جنبي.. مش عايزك تبعدي تاني.

لم تفاجأ سلمى بكلامه. لقد رأت هذا الكلام في عينه حين تقابلا للمرة الثانية في القطار مصادفة. كذَّبت نفسها وقتها، فهي لا تريد ذلك. إنها تريد رحيم ورحيم لا يريدها، والآن ها هو من يريدها ولا تريده. إنها مقتنعة بعاصم كصديق.. نفس اقتناع رحيم بها كصديقة. هل تجرح عاصم، كما فعل معها رحيم؟ حاولت أن تفكر في هدوء ثم قالت:

- خلينا نكون اصحاب الأول.. ندي بعض فرصة نقرب فيها من بعض.. احنا مانعرفش بعض إلا من كام يوم.. يعني ممكن جدا تكون فاكرني حد تاني خالص مش هو أنا .

قال عاصم وهو يبتسم لها ابتسامة صافية :

- الحب مايعرفش ميعاد يا سلمى .

قالت مختصره كلاما كثيرا :

- الحب ده لعنة .

أراد أن يخبرها بأنه يعرف مشكلتها. لكن هل ستحترمه لو علمت أنه تلصص عليها وهي تكتب شيئا شخصيا كهذا؟.. سكت، ونظرت هي إليه، فكادت تشفق عليه، ولكنها تداركت ذلك قبل أن تسقط في هاويته، فسارعت تقول:

- مش هناكل بقى ولا ايه .

صارا يأكلان في صمت.. قال عاصم لنفسه "لا يهمني الماضي، ولا الذكريات، كل ما يهمني هو حياتي معها وقبولها لي في حياتها". قال في نفسه أيضا إنه لن يخبرها بذلك، إنما سيثبت لها بالأفعال. كانت سلمى تفكر في نفس الوقت أنها تريد أن تبقيه صديقا لها يساندها في الحياة؛ لكن تذكرها لتشابه هذا مع ما فعله رحيم كان ينفِّرها .

انتهيا من طعامهما، فخرجا إلى الشارع وتناولا "الأيس كريم" وهم يسيران وسط رواد وسط البلد وعوالمهم الخاصة، كل شارد في عالمه رغم اختلاطهم في زحام واحد، لا تستطيع أن تميز فيه إن كان هذا المكان هو ملجأهم أم ضجرهم .

أوصلها عاصم لباب المستشفى، وعاد إلى منزله وصورتها لا تفارق عينه. قبل أن يغادرها قال لها أن عليها أن تنتظره في الاسكندرية. ابتسمت وهي تختفي وراء باب المستشفى ابتسامة احتفظ بها عاصم في قلبه، قبل أن يعود إلى شقيقته التي كانت تنتظره على نار لتسمع منه ما حدث بينهما. دخل المنزل فألقى السلام، وقبل رأس والده، ثم دخل إلى غرفته ليرتاح، لكن أخته سارعت وراءه تستجوبه. لم يبخل عليها بالحكاية، فأنصتت له، وغارت عليه منها، لكنها فرحت له. قالت :

- البنت دي جدعة قوي.. بس جواها حاجة غريبة.. لازم تعرفها الأول يا عاصم .

قال وهو يسترخي في سريره :

- تصبحي على خير يا هايدي.. اطفي النور وانتي خارجة

لم يخبر هايدي بما يعرفه عن سر سلمى. هذا ما لا يستطيع إخبارها به أبدًا. اتصل بسلمى قبل أن ينام، ليعرف ميعاد تحركها في الصباح. ثم قال لها:

- هشوفك قريب جدا.

قالت وهي تحاول الثبات :

- هنشوف

ابتسم واثقا من نفسه، وأغلق الهاتف، ونام نومًا عميقًا راضيًا.

* * *

٣١

الشرقية

كان مراد يفكر بجدية، وهو يراقب وحيد يروح ويجيئ في المكتب كنمر محبوس، ويخبط كفا بكف، ويهم بقول شيء ثم يتراجع، ويهم بالاتصال برقم ما ثم يتراجع.. كان مراد يفكر ما إذا كان وحيد خائفا على ابنته حقا، أم أنه يشعر بالإهانة الموجهة له بحبس ابنته ورفض توسطه لها. لو أن الاحتمال الأول حقيقي، ووحيد خائف فعلا على عهود، فهذه مفاجأة حقيقية لمراد، أن يكتشف بعد كل هذه السنوات أن قلب وحيد يعرف المشاعر الطبيعية ويحس نحو ابنته بأبوة حقيقية.. التفت وحيد إلى رفيقه فجأة وقال :

- انا بنتي مستحيل يحصل لها حاجة جوه.. هو اللي عملناه في الناس هيتعمل فينا ولا ايه !

كان وحيد قد اتصل بالمحافظ يطلب منه التدخل، ففوجئ بإجابات المحافظ مرتبة بشكل غريب، فصرخ به :

- انا بنتي لو حصلها حاجة مش هسكت.. وهفضح الدنيا على كل حاجة بتحصل .

لكن المحافظ لم يعر ما يقول وحيد اهتماما أو يأخذه على محمل الجد، لأنه متأكد أن وحيد يفهم تماما حدوده ويعرف جيدا مع من يتعامل. الخطر هنا أن أحدًا لم يفكر في احتمال أن ينفجر جنون وحيد وساديته في المكان الخطأ.. أو في الحقيقة هو المكان الصحيح تماما!

كان مراد يحاول أن يفهم ما يفكر فيه رفيقه، فهو الوحيد الذي يرى جنون الرجل عن قرب وليس كمجرد تقارير ممتازة عن تنفيذ المهام المطلوبة..

- هتعمل ايه؟

قال وهو يضع سلاحه في جرابه :

- هنتحرك على اسكندرية بقوة القسم كله .

كان الأمر جنونيا تماما، لكنه لم يستطع أن يمنعه. في داخله كان يجد شيئا من المتعة والرضا في كل ما يحدث. نفذ الأمر بسرعة، وأصدر تعليماته بتجهيز القوة اللازمة، وركب السيارة بجانبه، وتحرك الجمع إلى الأسكندرية. لم يكن في ذهن وحيد خطة واضحة، وظهرت على وجهه الحيرة حين أفاقه مراد من اندفاعه بسؤاله:

- احنا هنعمل ايه بالظبط؟.. أنت مآمن ان ما يحصلش حاجة لبنتك مقابل اللي بنعمله ده؟

نظر له وحيد بعجز، فتابع مراد:

- طيب ممكن وانت في مكانك تساعدها أكتر.. أو على الأقل تضمن انها ما تتبهدلش جوه.. ماهو ماتحاولش تقنعني انك هتروح تقتحم المديرية بقوة من الداخلية.. ده جنان ده يا وحيد!

صرخ وحيد فيه:

- كفاية

اضطرب السائق وهدأ من سرعته، فأشار له مراد أن يتوقف في جانب الطريق. ظل وحيد صامتا تماما، فتكلم مراد نيابة عنه، وأصدر أمره بالعودة من حيث أتوا.

اقتربت المدرعة من مبنى القسم، وفتح مراد الباب وهبط منها، وتتابع الجنود يهبطون من الخلف. في لحظات قصيرة، لم يدر أحد من أفراد القوة من أين خرج هؤلاء الفلاحون، وأحاطوا بالمدرعة جاذبين الباب المفتوح، ومتمكنين من وحيد وقد عزلوه عن رفقائه، فلم يعد من الممكن للقوة مهاجمتهم وإلا خاطروا بحياة المأمور. حاول مراد أن يصيح فيهم أن يبتعدوا ويتقوا سلاح الداخلية، لكن سيف كشف وجهه أمامه وقال:

- لو سمحت يا مراد بيه خليك انت بعيد عن الموضوع ده.. احنا جايين نخلص موضوع بيننا وبين وحيد باشا.

كان وحيد ينصت لكلام سيف، وقد عرفه. كيف لا يعرفه وهو الذي ظل دميته المفضلة لسنوات طويلة يفعل بها ما شاء له خياله

من ابتكار للعذاب. دبت القشعريرة في جسده وهو يرى التفاف الفلاحين حول ولدهم حاملين أسلتحهم البيضاء. حاول مراد مرة أخرى أن يظهر الثبات أمام الشاب، رغم أنه عرفه جيدا، بل ومال لتأييد موقفه ولكن لا مجال هنا للميل، فالوضع على وشك الاشتعال. قال مراد مواجها عيني سيف الجامدتين :

- خد ناسك وامشي يا سيف.. وانا هعتبر أن الموقف ده ماحصلش، وروح ابتدي حياتك وعيش وانسى اللي فات كله .

كان ظهر سيف محميا بأهله وناسه، ابتسم مستهينا بالكلام، وقال لمراد في عينه :

- يا بيه انت راجل طيب.. ماكنتش موافق على تصرفاته وكل أهل البلد عارفين ده.. خليك انت بعيد عشان ماتوسخش نفسك بدمه .

- يا سيف انت شاب ولسه العمر قدامك.. ما تضيعش نفسك وسافر أي حتة وكل عيش.

فجأة، دفع وحيد السائق الجالس مرعوبا بجواره، فسقط من المدرعة إلى الأرض، وقفز وحيد فوقه. لم يكن وحيد يحسب الأمر جيدا، فقد كان هذا الباب محاصرا هو الآخر، وبمجرد أن رفع عينه علم أن لا مفر، فالأسلحة البيضاء تلمع في أيديهم قريبا جدا منه. جرى مراد إليه، واخترق القوم حتى جاوره، وقال له من بين أسنانه:

- ماوصلناش للمرحلة دي غير بسبب أسلوبك.. سيبني مرة واحدة أمشيها بطريقتي.

لم يكمل مراد كلمته.. قفز وحيد إلى السيارة المدرعة، التي كانت لم تزل دائرة، فأنزل فرامل اليد في سرعة، وداس البنزين بكل قوته، فاندفع بالمدرعة وسط الناس المتجمهرين، لا ينظر من سيدهس منهم، وهو يجز أسنانه ويلعن أشكالهم ومن أنجبوهم. لم يصب أحد إلا برضوض وكدمات بسيطة، وحاول سيف أن يتبعه بدراجة بخارية، لكنه توقف ذاهلا وهو يرى وحيد يسقط في الترعة بمدرعته، التي انفجرت وتعالت منها النيران.

حاول سيف أن يجري ليخرج وحيد من المركبة، ليس لينقذه وإنما ليتأكد من موته. جذب مراد ذراعه، وهز رأسه ينهاه، ثم يشير نحو الطريق حيث سيارات النجدة والإسعاف تسرع نحوهم. قال له كلمة واحدة:

- اهرب

تردد سيف لوهلة، فصرخ فيه مراد ثانية:

- اهرب

فر سيف نحو الحقول القريبة، ورمي نفسه يزحف بين الزرع ويختفي تماما عن الأنظار، بينما تفرق الفلاحون البسطاء وهو يمصمصون شفاههم ويحوقلون.

بعد ساعات قليلة، كان مراد يجلس إلى مكتبه يكتب استقالته؛ بينما وحيد جثة محترقة ممزقة في المستشفى، تنتظر تصريح الدفن .

ساد الهرج في المكان.. صحافة وقوات أمن من المحافظة وأهالي المنطقة يستطلعون ويتأكدون من الأخبار. كان خبر استقالة مراد له أثر حزين في قلوب الجميع، فحتى من كانوا يعتزون بوحيد قائدا وقدوة لم يمنعهم فكرهم من محبة مراد. وحيد نفسه كان يحبه ويرى فيه مصالحته لنفسه، حيث إنه هو من تركه يتجنب الشرور ولم يرغمه عليها، فاعتبر أنه بذلك شريكه في كل خير يفعله. مات وحيد، وحتى في المرة التي قرر أن ينفع ابنته لم تمهله الدنيا أن يفعلها.

في خلال ساعات، خرجت جنازة عسكرية مهيبة لوحيد. ترك مراد استقالته على المكتب، وأوصى ضابطا حديثا لم يزل ملازم ثان أن يطمئن على إرسالها في الغد للمديرية.. ثم انسحب في هدوء من كل هذا المرج، وأمسك بهاتفه يتصل بابنه الصغير ويضاحكه ويسأله عما يريد أن يأتيه به في طريق عودته، وهو يعده أنه لن يغيب عنه كثيرا بعد الآن.

كان سيف يقف بعيدا، يراقب الجنازة ونار قلبه لم تبرد أبدا. كان يتمنى أن يقتله بيده. لمح مراد يمر بجواره، فقفز أمامه، حتى إن مراد انتفض من المفاجأة ووقف مكانه. بادره سيف:

- تفتكر ده يرضي ربنا؟ حتى في موته عزيز ومعمول له جنازة وعساكر وورد؟ ليه؟ أخويا مات غريق وكانوا خايفين يدفنوه وامي ماتت بحسرتها والكلب ده بيكرموه ليه؟

اتسعت ابتسامة مراد وهز رأسه، وبدأ خطواته مبتعدا عن سيف وهو يقول له:

- صغير ولا فاهم حاجة.. هيعمل ايه بالورد والعساكر كمان ساعة من دلوقت لما يتقفل عليه باب القبر؟.. مش باقول لك يا سيف روح عيش لسه العمر قدامك

كان قد تخطاه حين أنهى كلماته، فالتفت سيف وراءه يتابعه مبهورا.. قال له مراد دون أن يلتفت:

- ابقى اسأل نفسك يا سيف انت ازاي واقف هنا وشايف الجنازة وماحدش مسكك ولا بلغ عنك. علشان تعرف بس ان الدنيا لسه بخير.

* * *

٣٢

الأسكندرية

كانت أخبار الكارثة التي حدثت في القسم قد وصلت إلى القيادات، فصدمتهم تماما. كان وحيد يحكم المركز بقبضة حديدية، ويضرب به المثل في الإنجاز بينهم. نبأهم الحدث بنار كبيرة تحت رماد الصمت، وكان عليهم الحذر في اختيار من يحل محل وحيد في قيادة المنطقة والسيطرة عليها.

كانت عهود بمفردها في غرفة صغيرة، بها مكتب صغير في المنتصف، ولها نافذة ضغيرة جدا أعلى أحد حوائطها، ليسمح للهواء وبعض الضوء بالمرور إليها، وملقاة على الأرض بطانية سوداء في أحد الأركان. أرهقها التحقيق كثيرا. كانوا يتبادلون سؤالها وأعادة سؤالها، لا يملون، أو يتعمدون أن يزيدوا إرهاقها ولا يتركوا لها فرصة للنوم أبدًا. والسؤال العجيب الذي كان كل من يحقق معها يسأله هو عن المنظمة المجهولة التي تعمل معها، والمستفيدة من نشر صور انتهاكات الداخلية المصرية .

في البداية، كانت تحتفظ بهدوئها، وترد برزانة ومنطق على الأسئلة، مع قلة النوم، والقلق والتوتر المستمر، والتحقيقات

المتواصلة معها ليل نهار، بدأت تفقد توازنها. إنهم واثقون أنها لا تعمل لصالح أحد، وأن كل ما فعلته كان لأجل المواطن الذي قتل بدون سبب. كانت مندهشة، أهم يسألونها لإجبارها على اعتراف يبرئهم أمام الناس، أم أن عقولهم تصدق تلك الأوهام حقا. إن الثقة التي يحدثونها بها شككتها في أمرهم، وغيرت من تفكيرها فيهم كثيرا، وعرفت أن لهم قناعة عجيبة تكاد تعادل قناعة المطحونين بعدالة طلبهم للكرامة .

كانت عقارب الساعة تقف جميعها عند الثانية عشرة، منتصف الليل، حين دخل مسئول آخر عليها ليتابع تحقيقه معها. استيقظت من نومها على المكتب واصبحت مستعدة. كان وجهها ذابلا وملامحه شاحبة، فكل ساعة في هذا المكان كفيلة بأخذها إلى الشيخوخة، خاصة أنها أنفت طعامهم تماما ولم يدخل بطنها شيئا إلا أقل القليل من الماء. دلف الرجل إلى الغرفة، والظلام يحيط ملامحه، عكس وجه عهود، بسبب الضوء المسلط عليها مباشرة. قال :

- أخبارك ايه دلوقتي؟

استغربت عهود السؤال. كان الأول من نوعه الذي يلقيه أحدهم عليها منذ أتت إلى هنا. هزت رأسها كأنها تقول "بخير"، فسألها سؤالا آخر عما إذا كان أحد هنا قد ضايقها أو أهانها، ثم بم ينتظر أكثر، وأخذ نفسا عميقا ثم قال :

- البقيه في حياتك يا عهود.. والدك مع المسيح، ذاك أفضل جد .

عرفت الآن لماذا كانت تلك المقدمة. صرخت من وجع الصدمة، رغم أنها لم تعتقد يوما أنها تحبه. مرت في عقلها ذكريات ألم كثير كان هو سببه المباشر، لكنها تذكرت أيضا ذكرياته معها وهي طفلة، فبكت. تركها المحقق تبكي، وغادر الغرفة، ليترك لها مساحة لتفعل ما تريد. كان يراقبها هو وزميله من شاشة الكاميرا الموجودة في غرفتها، يتفحص رد فعلها واستيعابها للموقف، لكنها لم تفعل أي شيء، سوى صرخة واحدة طويلة، كادت تقطع أنفاسها، حتى سقطت أرضا فاقدة وعيها، فقرر المحققون نقلها للمستشفى المجاور للمديرية، إكرامًا لوالدها، وتجنبا للمزيد من المشاكل، فكل وكالات الأنباء والمنظمات الحقوقية تترصد هذا التحقيق .

* * *

كانت الشمس بدأت شروقها في السماء، ولسعة البرد ترجف الشوارع الخالية في عطلة نهاية الأسبوع، وقد أوى المتعبون طوال الأسبوع إلى الراحة. لكن كان رحيم وصديقه إبراهيم خارج مبنى المديرية، يراقبان الباب وقد يئسا من محاولة زيارة عهود .

فجأة، توترت الأجواء ووصلت سيارة إسعاف إلى الباب، ليهرول رجلا الإسعاف إلى الداخل بالنقالة، ثم يخرجان بحملهما الخفيف.. كانت عهود.. وكاد رحيم يصرخ فزعا حين رأى الإسعاف ستأخذها إلى حيث لا يدري. كتم إبراهيم فم رحيم ليمنع

خروج صوته بصرخة أو بكلام غير محسوب، يلفت الأنظار إليهما. جذبه بعيدا بسرعة، وركبا السيارة التي استأجراها، فصرخ رحيم أخيرا مطلقا وجعه:

-عملوا فيها ايه ولاد الكلب؟.. عملوا فيها ايه؟.. عهود ماتت يا إبرهيم؟ قتلوها وللا عملوا فيها ايه خلاها مش دريانة بالدنيا وخارجة على نقالة؟

هب فيه إبراهيم غاضبا. وبخه على انفلات أعصابه، وحمَّله مسئولية تفويت فرصة إنقاذ الفتاة، بل وربما لفت نظر رجالهم إليه، فيلحق بها في سجونهم، فلا ينفعهما أحد.

أخبره في رفق أن ما حدث جيد.. هكذا تغيرت الخطة للافضل، فقد كان تفكيره في اقتحام المديرية حماقة، واستهانة بدم كثير قد يراق في سبيل حبيبته. صاح فيه أنه ليس في أسطورة إغريقية سيستمتع بها المشاهدين وإنما كل دم يراق سيكون في رقبته، وأنه هكذا لا يفرق عنهم شيئا .

هدأ رحيم.. يعرف أن كل كلمة قالها إبراهيم صحيحة. إنه لم ير أمامه إلا عهود واستهان بكل من سواها. لكزه إبراهيم وهو يبتسم مشفقا على صديقه من الصراع القوي الذي بداخله، وقال له:

- انت هتسرح.. اتصل بابوك قل له آخر التطورات خلينا نشوف هنعمل ايه.

اتصل رحيم بأبيه، بينما أدار إبراهيم السيارة واستعد لملاحقة الإسعاف كي يعرفا أين تذهب بعهود. فكر الكبير قليلا، وسأل رحيم بضعة أسئلة عن مكانه الآن واتجاه سيارة الإسعاف، وطلب منه أن يتابع معه خط سيرها. سأله رحيم ثم ماذا، فنهره، وقال له إن العمل الناجح يكون بتركيز كل فرد فيما هو مكلف به لا في التشتت في باقي أدوار الفريق. قالها وأغلق الهاتف، فاحمر وجه رحيم وهو يكاد يسب ويلعن، فعهود تخصه وحده ويجب أن يعرف كل شيء. عاد فهدأ.. فكر أنه صار منذ الأزمة فاقدا للحكمة تماما. قال ذلك لإبراهيم، فضحك وقال:

- الحب بقى وكده.

ابتسم رحيم ابتسامة باهتة. كان القلق يأكل قلبه على عهود، فهو لا يدري مدى إصابتها التي جعلتهم ينقلونها للمستشفى. لم يفهم أن إصابات المعتقلين لا تضطرهم للمستشفيات مهما بلغت، ولكن ما اضطرهم لذلك ليس سوء الحالة وإنما الاهتمام الإعلامي والدولي بالقضية. أفاق من شروده على صرير الإطارات العالي على الأسفلت، واندفاعه للأمام بشدة لولا حزام الأمان. كانت سيارة الإسعاف قد حوصرت فجأة بعدد من السيارات، نزل منها ملثمون، يوجهون الكلاشينكوف إلى السائق والقوة الصغيرة المصاحبة للسيارة. تمت العملية ببساطة واحترافية جعلت إبراهيم ورحيم مذهولين. في دقائق، كانت عهود قد اختفت في إحدى السيارات المسرعة، بينما ظلت باقي السيارات تحاصر الإسعاف وتمنع اتصالها

لطلب نجدة لدقائق أخرى، قبل أن تفر سيارة وراء أخرى، ويفيق الصديقان مع آخر سيارة تختفي، ويصيح إبراهيم:

- اطلب ابوك يا رحيم اعرف دول تبعه وللا مين دول

ارتعش رحيم وهو يمسك الهاتف ليتصل بأبيه:

- أكيد تبعه يا ابراهيم ما ترعبنيش.. مين تاني هيعوز عهود

صرخ إبراهيم:

- انت اتهبلت باين.. الدنيا كلها بتتكلم عنها من الصعيد لأمريكا وتقول لي مين عايزها!

كان الكبير قد رد على سؤال رحيم قبل أن ينطق شيئا، إذ قال له في هدوء :

- قربوا يوصلوا القبيلة .. يللا مستنيينك

همس رحيم:

- الحمد لله

وأغمض عينه واسترخى في كرسيه تاركا القيادة لإبراهيم، الذي فهم أن الأمور بخير، فترك صاحبه يستجمع قواه المنهكة.

* * *

٣٣

قبيلة الرحايمة

كانت الطوارئ معلنة في قبيلة الرحايمة، والكل في حالة من الحماس، فهذه أول مرة يختبرون فيها قدرتهم على تطبيق كل ما زرعه فيهم الكبير والمعلمين الذين استعان بهم لتنشئة الشباب على الانتماء والاتحاد والعمل الجماعي. كانت عهود في مستشفى الرحايمة، تتلقى العلاج على يد أطباء الواحة الشباب، وقد استعادت وعيها وعرفت ما حدث، فابتسمت لرحيم وقالت له كلمة واحدة وهي تبتسم في ضعف شديد:

- مجنون

كانت تفيق لدقائق ثم تغيب لساعات، لكن الأطباء أخبروا رحيم أنها تنام وليست في غيبوبة، فهي تعوض الإرهاق الشديد العصبي والجسدي في الأيام الماضية.

في الأيام التالية، لم يحدث أي شيء ينبئ عن تحرك للداخلية نحوهم، أو توصلها لمعرفة ما حدث. كانت الجرائد تصل إلى الكبير كل يوم، فمر يومان قبل أن ينادي ابنه ليريه شيئا ما وهو يضحك. كان خبر صاغته إحدى جرائد المعارضة الصورية المنتشرة لتهدئة

الناس وهي في الحقيقة ليست إلا يدا أخرى من أيدي الحكومة. كان الخبر يقول:

"إفشال مخطط مخابراتي لخطف متهمة بالتجسس وتهديد الأمن العام وسقوط جميع المهاجمين والمتهمة قتلى أثناء المواجهة"

كان الخبر يعني غسل يد الداخلية وإسكات الشارع بكل توجهاته، فمن يؤيدونهم سيصفقون لبطولة الشرطة، ومن تعاطفوا مع عهود لن يجدوا ما يقولونه. زفر رحيم مرتاحا، رغم ضيقه كعاشق من ذكر اسم عهود كميتة. شيء آخر حمل همه. لقد ذكروا أنها كانت عميلة وأن أباها جندها، وذكروا اسم أبيها لتلتصق به بعد وفاته أسوأ تهمة خيانة لا ينساها الناس.

كانت عهود قد تعافت، وبدأت تنزل من فراشها وتتحرك، وتقرر خروجها من المستشفى. صحبها رحيم وخرج بها إلى شمس الواحة، التي أشرقت على وجهها، فسألته عن هذا المكان، فقال لها إنه سيصحبها لمن يمنحها الإجابة. أخذها إلى مجلس والده عند البئر وتحت نخلتين عجوزتين. رحب بها الكبير وأشار لها أن تجلس على إحدى الوسائد الكبيرة المنقوشة بألوان مبهجة، فجلست، بينما يخبر رحيم أباه عن سؤالها. ابتسم الكبير وهز رأسه، وبدأ في أحب حديث إليه.. حكاية أول من خطت قدماه هذه البقعة من الصحراء، ليتزوج من ست الحسن "مارية"، تلك التي لم يأت بعدها الزمان بمثلها .

* * *

قبيلة الرحايمة - شتاء ١٥١٨

بعد خمسة أيام من العيش معا، يعملان سويا بالنهار لرعاية الأغنام وإطعامها وسقياها.. وصنع العجوة من التمر.. وتنظيف البئر.. ورتق الخيمة والأغطية.. جلس رحيم ومارية ليلًا بداخل الخيمة، لتحميهما من برد الصحراء الشديد، وهو ينتظرها لتبدأ حكايتها دون إلحاح منه. لم تنتظر سؤاله، فقد كانت نظراته لها تشي بتساؤله والفضول الذي يقتله لمعرفة قصة هذه التي أنقذته وآوته،

ثم صار أسير عينيها الفاتنتين. قالت له باسمة:

- تدفع نصف عمرك مقابل أن تعرف من أنا

أومأ موافقا، فضحكت وسكتت، فسألها:

- ألا ترغبين في الزواج؟

قالت :

- زهدت الرجال لما رأيت منهم، لم يأت بي إلى هنا إلا هم .

اعتدل رحيم في جلسته، وقد فاضت عيناه فضولا، فضحكت ثانية، فقال:

- أعترف أني أريد سماع حكايتك وأن أنكرت فلن تصدقيني ولن أصدق نفسي. لكن الأهم من الحكاية أني أريدك لي زوجة.. ماذا تقولين؟

ضحكت مارية على كلامه وقالت :

- أنت مسلم وأنا مسيحية

قال لها :

- بل أنا آدم وأنت حواء، والقبيلة أرضنا الجديدة

نظرت له وهي تسترجع حياتها منذ نضجت أنوثتها، وطمع جميع أبناء القرية فيها. لم تسلم من كبيرها ولا صغيرها، فلم يكن أمامها هي ووالداها إلا الرحيل، وانحرفت بهم الطرق تجنبا الناس، الذين كلما رأو مارية فتنوا بها، ولم تسلم منهم، حتى لم يجدوا ملجأ إلا الصحراء، حيث باع أبوها كل ما كان معهم، واشترى بثمنه بعض الأغنام، وظلوا يتحسسون المياه والعشب ويتنقلون من مكان لآخر، حتى وصلا إلى هاتين النخلتين اللتين جادتا عليهم بالتمر، فعاشوا على التمر واللبن، وبين كل حين وحين بلحم أحد خرافهم، وتعلموا تقديد اللحم في الشمس، كي يكفيهم ما ذبحوا لأيام أطول .

تنهدت، ونظرت له قائلة:

-تركت الكاهن والصالح من أبناء ديني.. هل أقبل بالزواج منك؟

ظلت نظرته إليها ثابتة في ثقة، فقالت له وهي تشد الغطاء عليها وتعطيه ظهرها لتنام:

-الجمال فتنة ولعنة، فاتقِ شر الفتنة.

لم يرد عليها. لكنه رغم رفضها أحس أنه قريب من قلبها وتفاءل بالغد. نامت مارية وهي لا تدري ماذا ستفعل غدا، وما مصير هذا الغريب معها بعد أن طلب يدها للزواج. مرت أيام وهو لا يفاتحها ثانية في أمر الزواج، استمرا في العيش الشاق معا، وطالت الأيام وهي لا ترى منه بادرة تفكير في ترك الواحة .

لاحظت مارية في رحيم قوته ورجولته وتحمله معها أعباء العمل دون كلل. كان قويا بما يكفي أن يستبيح جسدها لو أنه أراد أن يفعل. بدأ قلبها يستجيب لطلبه قبل عقلها، ثم اقتنع عقلها أيضا أن هذا هو القرار الوحيد الصائب طالما سيبقيان هنا معا وحدهما، وبالفعل أخبرته ذات مساء، بعد أن أنهيا أعمال اليوم، وجلسا معا تحت إحدى النخلتين يشربان اللبن..

- رحيم

رفع الكوب عن شفتيه، ونظر لها متسائلا، فأشرقت ابتسامتها وقالت له:

- موافقة

* * *

ترك رحيم كوبه غير مصدق، ثم قام إليها وعانقها وأخذ يدور بها وهو يصيح ويشهد الأرض والسماء والنخلتين على زواجه وفرحته، ويعاهد كل هؤلاء أن يطرح لهم أبناء طيبين يحافظون على واحتهم وطنا غاليا .

* * *

ابتسمت عهود، لا تدري أمتعاطفة مع القصة أم متحفظة. قالت:

- لا مأذون زي المسلمين، ولا إكليل يحل بيه روح القدس على العريس والعروسة..

لم يكن هناك مجال لنقاش العقائد. كان وضع رحيم ومارية فعلا كما قال لها "آدم وحواء" ولا أحد. قال رحيم :

- آدم وحوا ما اتجوزوش لا بإكليل ولا بمأذون يا عهود.

نظرت إليه صامتة تفكر في كلامه، فقال لها:

- انا بحبك يا عهود.. بحبك من أول يوم شوفتك فيه .

لم تخفض عينينها، بل قالت وهي مستمرة في النظر في عينيه :

- أنا كمان بحبك يا رحيم.. انت عملت عشاني اللي ابويا مفكرش يعمله. انت مستقبلك كده ضاع بسببي.. مااظنش اننا هنقدر نخرج تاني بره المكان ده.

تنهد في هدوء وقال لها:

- بس انا مش عايزك تحبيني عشان اللي عملته يا عهود. انا عايزك تحبي رحيم نفسه

ابتسمت، واحمر وجهها هذه المرة وهي تخفض عينيها وتقول:

- مانا بحب رحيم نفسه يا رحيم

عند هذا الحد، رفع الكبير يده في فرح، ليعلن زواج ابنه من مارية القبيلة الجديدة، ولكن قبل أن ينطق كلمة، انفجر صوت عالٍ يشبه الرعد في قوته، فتحرك الكبير يتوكأ على عكازه، فأسرع رحيم إليه ينهضه من جلسته. نظر إليه وقتها نظرة لن ينساها رحيم ما بقي

له من العمر. كانت نظرة تقول له إنه صار عكاز القبيلة وحاكمها الجديد منذ هذه اللحظة.



البداية

26 نوفمبر ٢٠١٦ – صباحًا

استقبل الكبير الوفد القادم في مضيفة القبيلة . كان وفدا عالي المستوى من الحكومة، جاء ليفاوضه لتسليم عهود. كان الكبير قد صرف رحيم وعهود ومعهما أحد رجاله ليأخذهما إلى مخابئ القبيلة ، التي يلجئون إليها وقت هجوم تجار المخدرات والسلاح عليهم من حين لآخر. انقضت ساعات النهار في المفاوضات بين الوفد والكبير، ورحيم وعهود لا يفهمان كيف يحدث هذا، ويصران على سؤاله بمجرد خروجهما من المخبأ .

كان الكبير حكيما، وله باع طويل في معاملة أولئك القوم، والتفاق معهم على التعاون، حيث يحتاجونه كثيرا هو وقبيلته في السيطرة على الصحراء ومن يلجأ إليها من مهربين ومجرمين ومتسللين إلى البلاد.

في النهاية، توصلوا إلى تراض على أن ترضى الحكومة بما قالته بنفسها على صفحات الجرائد من أنهم قتلوا الفتاة، بينما يرضى الرحايمة بالفوز بزوجة كبيرهم الجديد، على ألا تخرج من القبيلة ، ولا يصل خبر بقائها على قيد الحياة إلى مخلوق خارج حدود المكان.

قبل أن ينصرف الوفد، أكرمهم الكبير بالهدايا الكبيرة، حتى شبعت أطماعهم، ثم قال لهم فيما تجاهلوا نبرة السخرية فيه:

- ابقوا خدوا بالكم من رجالتكم يا كبارات الدولة. ازاي بس تبيعوا راجلكم اللي عاش يرضيكم على حساب كل حاجة حتى بنته وتطلعوه خاين وجاسوس؟ طيب رجالتكم يتطمنوا لكم ازاي بعد اللي عملتوه في الراجل ده؟

* * *

26 نوفمبر ٢٠١٦ - الثالثة عصرا

رغم كل الاحتياطات، تسربت أخبار الوفد الذي ذهب إلى الرحايمة إلى وكالات الأنباء. بدأت الخيوط تتجمع، والقصة تتضح أكثر، وصور عهود وآخر ما صورت من الأفراح ورحيم معها تنتشر على مواقع الإنترنت. صارت فضيحة الحكومة أكبر من السكوت، ولابد من موقف أكبر حتى من الداخلية. كان الاجتماع الدائر في الكواليس يقرر أن الجيش هو من سيتدخل هذه المرة، ليعالج الأمر بطريقته .

ازداد الأمر سوءًا.. حاصرت مدرعات الجيش ودباباته القبيلة. منعوا كل شيء من طعام وشراب من الدخول إليهم. لم تكن الدولة لتسمح أن تظهر بمظهر ضعيف أمام الشعب، مهما كانت استفادتها من الرحايمة في حماية حدود الوطن وصحرائه المهجورة. صاحت الميكروفونات بالخارج، ليصل الصوت إلى الكبير يخبره أنه في خلال

عشر دقائق، إن لم تخرج عهود على قدميها بمفردها، سيتم دك المكان بأكمله بقذائف الدبابات .

لم ينتظر أمين كل ذلك. للمرة الثانية أخذ رحيم لأنفاق الهروب، ومعه عهود، ولكن صحته لم تسمح له أن يصحبه هذه المرة، أو ربما تحجج بذلك، لأنه أحس أنه واجبه يحتم عليه أن يبقى مع أخيه وقد اقترب الموت ..

كانت عهود مفزوعة، وتكرر سؤالها لرحيم، كيف سيترك كل هؤلاء الشباب للموت، فقط من أجل امرأة أحبها؟! لكن قبل أن يرد عليها كانت عملية القصف قد بدأت وسقط أبناء الرحايمة واحدا تلو الآخر، بينما تصرخ النساء وهن تحاولن الفرار بصغارهن .

نزعت عهود ذراعها من يد رحيم ، وجرت إلى النساء فصاحت بهن أن تتوجهن بأطفالهن إلى نفق الهروب. تدفقت النخوة إلى صدر رحيم، فأخذ يساعدها فيما تفعل، ويوجهان النساء والأطفال.. والكبير يرقبهما من مكانه، وهو يهز رأسه راضيا ويقول في نفسه إن رحيم عرف الرجولة أخيرا، وأنه مهما ضربتهم الحكومة الآن، فسيترك الرحايمة أطفالا جدد يكبرون ويعمرونها ويزرعون الأمل في خلق وطن نظيف.

في نفس الوقت، كانت سلمى تجلس مع عاصم عند شاطئ بحر الأسكندرية، تبكي خبر وفاة صديقتها، الذي نشرته الجريدة منذ أيام، وصدقته لما تعلمه من أسرار عن وحيد أخبرتها بها عهود. كانت تبكي كذلك ذكرى رحيم، الذي لم تعد تعرف عنه شيئا،

وقررت ألا تسأل عنه ثانية. لقد حكت لعاصم قصتهما باختصار، فلم يعلق كثيرا، حتى إنه لم يتفاجأ بل قال لها إن هذه قصة تتكرر كل يوم مع الكثير . وطالما ستظل في الماضي فهي لا تعنيه ، فجأة هبت رياح شديدة، فأشار عاصم نحو البحر، فرأت سلمى مركب صيد صغير يعافر الأمواج.

- تمت بحمد الله -

شكر خاص جدًا

- للرائعة / د. ايمان الدواخلي
- عهود الطاهري
- مصطفى شبل
- ماريان وحيد
- مهند مرزوق
- محمد شبل
- محمود خواجة
- حسن البخاري
- نسمة الجمل
- محمد عصمت
- أحمد زغلول
- عزيز محمد
- هناء الزاوي
- خليل السيد فرج
- أحمد يوسف خواجه